الرحيل عن مدن الهزائم

وقصص اخرى

خالد محمد غازي

الكتاب : الرحيل عن مدن الهزائم (قصص)

الكاتب : خالد محمد غازي

الطبعة : الرابعة ٢٠١٥

الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

غازي، محمد ، خالد

الرحيل عن مدن الهزائم – خالد محمد غازي – الجيزة – وكالة الصحافة العربية

ص ، ١٨ سم .

تدمك : ٥– ٢٦ – ٥٧٧٢ – ٩٧٧

أ. العنوان رقم الإيداع / ٧٨٠٠ / ١٩٩٩

الرحيل عن مدن الهزائم

إهداء :

إلى ضحى ..
الحقيقة والرمز

المؤلف

أقوال :

– ليس هذا عدم قدرة على الكلام ، بل عجز عن إمساك اللسان .

" إيبخارموس "

– إذا تم العقل نقص الكلام .

"الإمام علي بن أبي طالب "

– ملكت نفسي منذ هجرت طمعي

"اليأس حر ، والرجاء عبد

"مهيار الديلمي "

– أعطوني فقط نقطة ثابتة أقف عليها وأنا أحرك الأرض

" أرشيميدس "

– حكمت تلك التي تقول أننا لا يمكن أن تشعر بالحب نحو أي إنسان، إذا لم تكن نعرف أننا نستطيع أن نسخر منه أو نضحك عليه في وقت لأو في آخر .

" أجنش ربليار "

– لا أعلم شيئا أزيد في السيئة من استصغارها ، ولا أحبط للحسنة من العجب بها

" الجاحظ "

الليل والحلم

وحيداً ..

خرجت ، أبحث عن كوة مجهولة من نور .. توقي يسابقني إليها .. عيون خلاني ترقبني .. أسمع صوت أبي يدعو لي بأن أرجع سالما ، غانما .. القطار ينطلق ، صوت أمي يعلو فوق كل الضوضاء، وهي تودعني على رصيف المحطة وتحذرني وتنصحني .

قرأت كثيرا .. وغامرت كثيرا .. وأحببت فتيات كثيرات ، منهن من أحبتني وضحت بأشياء غالية من أجلي ، ومنهن من قاومت مشاعرها ، فعرفت آلام الفشل .. ألم تجرب مرة في حياتك أن تكون محبا ولا تكون محبوبا !

أتسلق الجبال .. أعبر المحيطات .. قال لي صديقي :

– إنك تذكرني بالسندباد .. ابتسمت .. كبر حلمي بداخلي .. نفسي مازالت تضم جمر الشوق إلى كوة النور .. أقف أمام مطعم يسيل لعابي .. أقاوم الجوع والعطش .. أذهب إلى بائع الكتب "القديمة" .. عم "حسين" الضرير ، أشتري كتابا ، أنهل ما فيه ..

يزيد توقي ، أتحسس جيبي ، عازما شراء كتاب جديد .. لكن ما معي لا يكفي لشراء كتاب جديد ! أعيد قراءة الكتاب الذي بين يدي مرات ومرات !!

أنا فارسك الأخير .. الذي يحلم بتحقيق المستحيل.. أعدك بفستان أبيض أنيق ، إذا نشرت كتابي الأول ، وسأشتري لك حذاءً وحقيبة يد .

عندما ذهبت إلى مدير إحدى دور النشر عارضا عليه كتابي ، مط شفتيه وقال : لا أغامر بالنشر لكاتب جديد.

عندما ذهبت إلى ناشر آخر قال : نحن ننشر لكبار الكتاب فقط ، وذهبت لثالث ورابع وخامس ..

هل هي مؤامرة عليّ .. لكن ممن ؟

ذهبت إلى غرفة أحد أصدقائي فوق السطوح ، كنا نجتمع عنده ، دائما نتحدث في الأدب والنقد والسياسة وأمور كثيرة ، لكن مجموعتنا تلك تفرقت .. منهم من اشتغل بالتجارة ، ومنهم من سافر إلى بلاد النفط ومنهم من تزوج وأنجب ، فنسي صداقتنا وسط همّ مشاكله .

المهم . عندما جلست مع صديقي الذي كانت حجرته تجمعنا، شعرت أنه تغير ، لا أدري كيف أو لماذا ؟ لم أتكلم عن همومي ، وصديقي لم يبث إليّ همومه أيضا ، لا أدري لماذا ؟

طرق الباب .. قام صديقي وفتحه وهو يبتسم ابتسامة عريضة .. عندما دخلت سبقها عطرها الصارخ ، قبّلها ، احتضنها أمامي .. رنت ضحكتها .. أيقنت أنها معشوقته .. ابتسمت لي .. وأومأت ايماءة لم أفهم معناها حتى الآن !! قلت في نفسي "يجب أن أودعهما" .. وأنا نازل أيقنت لماذا صديقي تغير وعرفت لماذا لم يبث إليّ همومه كعادته ؟!!

وحيداً ..

أسير في الطريق .. لا أدري كم الساعة ؟ لكن ما أدريه أننا في وقت متأخر من الليل .. الزمن يمضي خاطفا معه العمر ، أوراق الشجر تطير فوق الأسفلت .. الهموم تكبر ، وهل أظل صامتا كحجر في قاع بركة ؟ صور كثيرة ، لا أدري كيف أتت إلى ذهني ؟ لسعتني نسمة باردة ، لا أسمع سوى وقع خطواتي المتعبة .. أبصر الوجوه الكريهة وهي تسبني ، لأني أزحت القناع عن زيفها. رفضت المساومة ، قالوا : هذا مقابل النجاح، صرخت بعزة: لا .. خوفي انسل من صدري كقطة جائعة ، انسلت تبحث عن مأوى .. لقد وقفت على عريكم ، البذرة الفاسدة لا مكان لها في نفسي ، ما يحزنني أن الأتقياء مازالوا مفطورين بالصمت ، فيبدو الحلو في مرارة العلقم !! أرهقتنا المحطات ، يقولون : ليس أمام السجين إلا قيده ، الحزن والخوف يلونان وجوه الناس ، يقولون كلاما سخيفا بلا معنى ..

انتبهت ..

أجساد كثيرة تمر .. بلعت ريقي .. أشعر برغبة في القيئ .. إلى متى نظل نعجن الوحل ، ونتوهم أننا نستطيع أن نصنع منه مملكة .. إلى أين يسير هؤلاء .. إنهم يسيرون في اتجاه خاطئ . وأواصل المسير..

وصلتني رسالة من أبي اليوم : "ياولدي .. احذر فخطوتك مراقبة ، أنت تحمل اغتيالك" ..

يا أبت .. خطوتي آثارها واضحة ، لا أستطيع أن أنحني لأمحوها ، فالنخل لا ينحني !!

مولاتي ..

يامن تعلمين أنك نصيري وملاذي في مدن النوم .. أنا لا نصير لي ولا ملاذ لي إلاك . يامن تطلعين على ضعفي وأنا مطارد . انصريني .. فالمدينة تطاردني بعد أن ضبطها في أحضان المرتشين والمنافقين .

تحسست رسالتها التي في جيبي .. وصلتني اليوم .. ما بالي أتذكرها الآن وهي ترفع رأسها إليّ بين حين وآخر ، ألمح في عينيها الخوف .. يكسو جبينها الحزن .. يخيل إليّ أنها تبكي كثيرا قبل لقائي وبعد لقائي ، اللقاء مجد والفراق خوف .. صورتها تشع في ذاكرتي إشعاع الماس في الظلام الدامس .. طفلتنا التي حلمنا بها تجمعنا .. نضمها لصدورنا .. نتوحد ثلاثتنا .

أخاف أن يأتي الوقت الذي أودعكما فيه !!

ترى هل تذكريني الآن ؟!

ذكراك تجذبني نحو السماء .. صدقني ولا تلمني واقبلني على سجيتي !

أقف أنظر للأفق .. الدنيا غارقة في عتمة .. يخيل إليّ أنه يفتتها نور نائس ، آه من نسمة الفجر .

مولاتي ..

مازلت أتخيل فيك صمود المصلحين وإيمان الأنبياء ورقة الرومانسيين .. حزين .. وأنت تدرين سبب حزني .

أطلب – الآن – منك الرأي .. السبل أمامي اشتبكت والرؤى غيمت، والفكر ارتبك تمنيت أن أخطئ فأفوز بغضبك عليّ ، فأتوب بين يديك .

تمنيت أن أذنب ، لأجد بين شفتيك كلمات التسامح ، وفي صدرك فيض الغفران .. دعيني أصارحك بسر خطير :

– إنني أناني لدرجة أني أخاف فقدك .

حرفان ..

هربا ..

تواجها ..

التحما ..

حاء .. باء ..

جلست مع أصدقائي على المقهى .. نشرب القهوة وندخن .. قال صديقي الشاعر الجالس على يميني : إن ما تبحث عنه وجوده مدمر .. إنه إمبراطور .. طاغية .. أشبه بهتلر أو نيرون !

حاء .. باء ..

تعبت من أوامر قائدك الذي يأمرني :

– تقدم للأمام .. تقدم للأمام ..

دخلت معارك كثيرة معه .. لكنني الآن ، أرفع راية التسليم ، بلا قيد ولا شرط .. فاحرسيني وضميني إلى جنودك .. فمفتاح عمري بين يديك ، فادخليه في سلام .

قال صديقي الجالس على يساري : أنت مجنون كبير .. تضيع عمرك في الامساك بالسراب .

كانت ليلة شتائية .. غزيرة المطر .. حينما لمست يدي يدها عفوا ، انتفضت كعصفور بلله المطر .. انتابتها موجة من رفض لا شعوري ، صرخت دون وعي : لا .. حزنت .. صمت .. التمعت عيناها ، أخذتها في داخلي ، وبكيت بلا دموع . لقد خافت من الخوف ، لكنها هربت مني إليّ !!

أحسست – رغم فراقنا – أنها في حاجة لأن تبكي .. وأنها كتمثال من الشمع يذوب تحت وطأة الحزن .. وتنتفض في رأسها كل المشاعر المطمورة .. أملها الصاهل الذي توغل في ضلوعها .

قال صديقي الجالس في مواجهتي : العجز أن تنتظر العطاء .

مازلت تنتظرين الفستان الأبيض الذي وعدتك به ، ومازال مجيئ الفستان مشروطا بتحقيق حلم مضطهد .

– لكني أراك تغارين من الكتب والنساء .. خبريني لماذا ؟

تمتمت .. هزت رأسها ..

– لا .. أنا لا أغار ..

ضميني إلى حنان صدرك الدافئ .. ناديني .. ناجيني ، صوتك الرخم يشعر المرء أنه جزء منه .. تسبيحاتك تشعرني بالتقوى.

تستوضحني في كثير من معاني الأبيات التي أنشدها.. قالت:

– مازلت تخفي عني أشياء كثيرة .

– لا أريد أن أكون مشتعلة في صدرك .. آلام ساخنة .. تنفعل .. تتهدج ..

– لماذا تهرب ؟

– هل أنا في حالة حب أم في حالة تأزم ؟ يكفي أن تكونين مطرا دافئا وشمسا حنونا .. وصحوا لذيذا ..

– تحدث .. ليكن حديثك معي نوعا من المناجاة الذاتية أو طرح استفهامات .. هيا استرجع

معي ما حدث وقل لي ما يشغلك ؟

تشير إليّ بسبابتها .. يتوهج خداها باحمرار بلون الدم الطازج ..

تقول : أنت كل الاخلاص !

حاء .. باء ..

منك سأبدأ .. لن أراود الصمت بعد اليوم .. الأصابع تتلاقى .. تتعانق .. تلتحم ..

وحيدا ..

مازلت أواصل السير .. شعرت ببرودة أطرافي .. أتاني المتنبي .. صافحني .. والمعتصم جاء وشد أزري والمعتز بالله هنأني .. هارون الرشيد ابتسم لي عندئذ ..

١٩٨٩/ ٣/ ٣

قالت : اذكرني

"أيها الغيب.. تحجب ما تشاء .. كل آت سوف يأتي بالقضاء .. إنما الرؤيا عذاب ووجيعة .. كل فجر صاغ للشمس دموعه .. وداعا أيها الغيب .. ليت هذا الليل يأتي بالضياء.. ليت هذا اليأس يتلوه الرجاء" ..

(من نقوش مسلة "أجاممنون")

"إنها تشبه نعنعة الماء ، لا يفضل بعضها على بعض ، تنفث السحر كالفجر ، وتغدق السلوى كالليل ، نفسها يتصاعد موسيقى ، وصوتها يضوع طيبا .."

(بودلير يجيب شيطانه)

"يا سيدة العمر .. لا تخذليني ، وإن جئتك تائبا ، فسامحيني ولا ترديني" .. كل رسالة تأتي منها تفجر ينابيع الأمل في نفسي .. كل رسالة منارة تهدي سفني الضالة .. نعم هي كل النساء ، لكن حبها محنة .. لك الآن أن تسألني : كيف يكون حبها محنة ؟

أنا رجل أسكن في القاهرة وأنتظر بريدها كل أسبوع وأطمئن نفسي منتصف كل أسبوع وأقول "ها هي الرسالة في منتصف الطريق ! هذا يعني أنني أتعذب" !! قال صديقي : إنني أتجرع من الكأس الذي أذقته للكثير من اللائي عرفتهن !!

على جدران حجرتي .. أرى ملامحها .. مرة تبتسم لي .. ومرة تُعرض عني .. ومرة أراها تقفز بين أوراقي وتداعبني . تجرأت مرة وقلت لها :أنا أحبك أكثر من حبك لي

ابتسمت .. قالت بمكر ودلال أنثوي : – لا أظن .

سألتها في إحدى رسائلي لها "أين أنا منك ؟" ..

فكتبت تقول : "حقا سؤالك أدهشني ! أما زلت تسأل ؟ أم تريد أن تسمع مني ؟!

اعتقد هو كذلك، لكني لا أريد أن أحدد عواطفي خلال بضع سطور، بل تحتاج إلى ورق بعرض البحر . عندما تجده أرسله لي!!".

لا تظنوا ..

إنني أكتب قصة امرأة : بل هي شيء عظيم حضوره على شكل امرأة!! أتلقى رسائلها بشوق نبتة صغيرة ظمأى للري .. صرت أعشق طوابع البريد وأختام البريد السوداء والحمراء .. وأقدر الخدمات الجليلة التي تقدمها لي هيئة البريد .

لا تقل لي ..

فلنبدأ من البداية "بداية القصة" عفوا .. لا أستطيع أن أجزم أنني أعرف متى البداية كانت ؟ حتى هي نفسها لا تعرف متى كانت البداية ؟!

نلتقي دائما على الورق ، في الرسائل .. كانت تظن أن الرسائل بمساحاتها الضيقة لا تستطيع أن تحوي مشاعرنا .. هذا صحيح ، لكنها أيضا المفتاح للولوج إلى مشاعرنا ، وقد التقينا أيضا وجها لوجه هناك في مدينتها الساحلية . أو بعبارة أدق في منفاها الساحلي ..!!

نعم التقينا ..

يبدو أنني أتورط في الكلام معك ، فمعنى لقائي بها ، أن أصفها لك تلك المرأة الأسطورية .. كل ما أتذكره جيدا ، أن عينيها هما حيرتي .. ولغز حياتي ، أردت أن أكتشف لونهما ، لكني فشلت! صحيح أنا لا أعرف الألوان جيدا ، لكن حدسي دائما يلهمني .

أتذكر ..

وهي معي .. ونحن متجاوران .. أشرت إلى البحر ، وقلت : انظري ! فنظرت وتعجبت .. قلت :

– إنه يشبه عينيك ..

قالت : – لكن .. عيناي ليست بلون البحر !

صمت .. صاحت .. : – فهمت ماذا تقصد ؟

ابتسمت فرحا .. حقيقة .. تمنيت أن أقبّلها في تلك اللحظة، لكني رجل جبان – جبان أمامها فقط – فتجاربي وفتوحاتي شاهدة على جرأتي في عالم النسوة .. وأشد ما يؤرق تلك المرأة الأسطورية – التي أحدثكم عنها – تلك الفتوحات ، التي تكره سماعها وتكره نفسها عندما تفكر فيها .

حبيبتي .. لا تستعمل المساحيق والأصباغ فوق بشرتها نهائيا .. رأيت وقابلت من هن أجمل منها ، لكنها في نفسي أجمل الجميلات – مع اعتذاري للجميلات لتحيزي السافر – لكن لا أدري عندما تتكلم لا أعرف من يشبهها .. أتأملها بحنان أخفي نشوتي ودهشتي .. يفضحني حبي !!

"آه يا سيدتي ..

ها أنا أصنع في الليل بابا ونافذة لفجر طال انتظاره ، فيا أيها الفجر لا تخذلني ! "

" .. ها أنت تسكن في النبض .. تتغلغل في ضلوعي .. صرت قضيتي ومصيري .. لا أستطيع أن أنكر أنني حاولت طردك من مملكة مشاعري ، لكني فشلت ! أتدري لماذا ؟! لأنك اتخذت مشاعري وطنا لك .. فكيف أطردك من وطنك ؟ إنني أبوح لك بهذا لأول مرة ، فلا تتعجب ولا تلمني !! كم أنا خائفة عليك .. أحبك

.. لم أقلها صراحة ، لكن قالتها كل خلجة من مشاعري ، كل لفتة مني تجاهك .. كل رسالة خطها قلمي لك .. كل سطر .. كل جملة .. كل كلمة .. كل حرف ، إذن ما جدوى الإعتراف صريح .. ألم تقل في إحدى قصصك "إن ذلك الشيء الذي يجمعنا روعته في أنه معنى لا يفسر" هل تقدر معنى كلماتي ، وتقدر مشاعري التي أبسطها بين يديك ؟

أيها العاقل .. الطفل .. العنيد .. خائفة عليك ، وخوفي هذا يؤثر على مشاعري وتفكيري ! أعلم أنك تواجه عراقيل لا حصر لها في بلاد تآمر فيها الدجالون على الأنبياء ! هذه بلاد تنفي أبناءها واحدا .. واحدا في الخفاء ..

" أيتها المدينة .. لا تصلبي حبيبي !

ترى هل مازلت تحتفظ بالوردة الحمراء ؟

ترى هل تكمل كتابة قصتنا قريبا ؟

هل عيناك مازالتا حزينتين ، تمرح فيهما ترنحات استجوابية ولوعة حارقة ؟؟

هل مازال الجرحان اللذان في جبينك يؤلمانك ؟.. "

كانت هذه رسالة من رسائلها .

هل أعتذر لك عن هذا الحب ؟ أم أعتذر لنفسي ؟ .. لا أدري !

مـن حقـك أن تكـشفيني ، أنـت يـا مـن أدركـت سـر قـوتي وضعفي.

– أنا في حاجة للبكاء ، لابد أن أراك في القاهرة ، أنا في حاجة إلى صـدرك ، لأبكـي عليـه وتـضميني إليـه . رغـم حـاجتي للبكـاء إلا أن الدموع عزيزة المنال .. أبي قال لي : "الرجل لا يبكي إلا مرة واحدة فـي العمـر ، لكنـه يبكيهـا دمـا" .. مازلـت أصـعد نحـو قمـة حبـي .. خائفا من فقد نفسي .. أراك تحدقين في ، وتقولين :

– يالك من كـاذب ، ألـم تقـل لـي أنـك لا تخـاف أبـدا إلا مـن شـيء واحد؟

– نعم .. أنا لا أخاف إلا من المجهول ، إنه يرعبني .

أرأيتم يا أصدقائي .. إلى أي مدى القصة موغلة في القتامة ، لأنـي لا أعـرف متـى ابتـدأت ولا أعـرف متـى سـتنتهي ، وأتمنـى أن أعرف قبل فوات الآوان .

وأنـا فـي طريقي إلـى مكتـب البريـد ، أقابـل أناسـا ربطتني بهـم عـادة الرؤيـة اليوميـة .. فتلـك "فاطمـة" التـي تبيـع الـورق والأقـلام ، جالسة أمام مكتب البريد ، فاطمة هذه فقد زوجها في الحرب منذ سـنوات وحتـى الآن مازالـت تنتظـره !! قـالوا : إن الدولـة سـتعطيها "كشكا" تبيع فيه ، لكنها مازالت تنتظر والسنوات تأكل عمرها .

وهذا هو "ماضي" أقصد الحاج "ماضي" يجلس على كرسيه وأمامه منضدة صغيرة ودواة حبر ومجموعة أوراق وتمغات .. يلجأ إليه بعض الناس لكتابة شكواهم إلى المسئولين لانقطاع التيار الكهربي دائما . وغلو الأسعار .. ويكتب لهم الحوالات البريدية لأبنائهم الطلبة المغتربين . بالإضافة إلى أن ماضي هذا سمسار عقارات .. وسمعت من أحد أصدقائي أنه يتاجر في الأدوية المخدرة .. وسألت نفسي : إذا كان هذا صحيحا فلماذا لم تقبض الشرطة عليه ؟ لكن السؤال ارتد إلى نفسي حزينا ، كسير النفس !!

أقف في صف طويل ، أنتظر دوري في تسجيل رسالتي .. وجها لوجه أمام موظف البريد ، فتح دفتره وأخذ يدون البيانات .. قال معبثا : – الرسالة الأسبوعية لا تتخلف أبدا ، والرد لا يتخلف أيضا .

نظرت إلى وجهه بامتعاض ، لست أدري لماذا انتابتني رغبة في أن أجره من قفاه وأقول له "لا تتدخل فيما لا يعينيك" لكني كظمت غيظي !

"آه من رسائلك .. تذهب بطيئة .. وتعود بطيئة كعصفور يعبر المحيط" .

يا أنت ..

يا من تعلمين من أنت !

مدي كفيك .. انتشليني من هذا القبر الموحش .. سفني غرقى في مرافئها .

انقذيني يا سيدتي ، فقد عزموا على صلبي على حدودك ! ليس ذنبي يا صديقتي أني أصبحت غريبا في وطن يقتل أبناءه .

في المساء ..

قلت سأكتب لها الليلة .. ماذا سأكتب لك الليلة ..؟

أحاول أن أبحث عن كلمة جديدة لم يقلها الناس ، لأقولها لك .. ليتني أستطيع أن أصنع أبجدية جديدة ليتني !.. حينما كتبت لك في عيد ميلاد حبنا "كل عام وأنت حبيبتي" كنت أعلم أني أقود ثورة على ماضيٍّ !! لأنني لم أكتب هذه الجملة على بساطتها لأحد قبلك ، لذلك ترددت كثيرا في أن أكتبها لك .. وأتساءل: هل سيأتي اليوم الذي سأكتبها لأحد بعدك؟ .. متى تكون الكلمة بمساحة الانفعال ، وحجم وفائي لك بحجم كلمتي؟!

من خلال رسائلك عرفت وجعا جديدا ، لم أعرفه في حياتي ،إنه وجع الإيجاز . وأنا كما تعلمين طماع جدا ولا أحب الإيجاز في رسائلك .

ها هم المتوحشون .. يتعقبون كلمتي لك بالرماح المسمومة .. وتتساءلين : خبرني بما تخفيه عني ؟

أريد أن أكتب كلاما لا يشابه كلام الناس ، وأخترع لغة لك وحدك ، لكن ما حيلتي وعقلي محدود وهذا يجعلني أكتب كلاما كتبه ملايين غيري.. ليكن – حقا – عزائي أنك تفهمين صمتي !

غريبان .. نحن .. أعلم .. نحاول أن نسير في رهبهم .. نكابر بالفرح والمستحيل .. لكن وجهك أصبح راية حزن !! لا تبتئسي .. هذا زمان التشفي.. هذا زمان الكلاب تهر ارتياحا .. تطارد الأبرياء .. فلمن نلتجئ .. لمن نلتجئ ؟

أنا ما جئتك مهزوما .. وما كتبت إليك مهزوما ! لكني أشعر أنهم يتآمرون على خذلاني !

(هل شعرت بروعة الأشياء التي لا أقولها عندما لا أقول شيئا؟!)

حينما انتهيت من كتابة الرسالة .. وضعتها داخل مظروف .. طرق بابي عامل البريد ، مد يده لي برسالة منها .. فضضتها بسرعة .. لم تكن بها الا كلمة واحدة .. "اذكرني" .. أيقنت أنها قرأت رسالتي التي سطرتها لها قبل أن أرسلها !

١٩٨٩/٢ /٢٧

نزيف الصمت

صوت المنبه يصرخ ، يوقظه ، يدهمه كالقدر الذي لا مفر منه .. يتقلب في مضطجعه .. زوجته تغط في سبات عميق بجانبه .. لم تشعر بضجيج المنبه .. ولم تشعر بتقلبه ولا حركته المتكررة في سريره ، كانت تتمتم بكلمات غير مفهومة وهي غارقة في النوم ..

نظر إلى المنبه .. أزاح عن جسده الغطاء .. ركز نظره إلى سقف الحجرة .. مسح بنظراته أثاث الحجرة .. نظر إلى المنبه .. لم يعد متسع للكسل .. تثاءب .. نهض بخطى مسرعة .. توضأ .. الماء بارد يشعر أن برودته تتغلغل في مسام جسده ، بسرعة أسرع إلى سجادة الصلاة .. سعل سعالا حادا ، لم يرث عن أبيه إلا السعال الحاد ونحول الجسد ، استيقظت زوجته .. أغمضت عينيها وفتحتهما عدة مرات .. رمقته بنظرة صامتة .. أزاحت الوسن عن جسدها ..

– ألم تفطر ؟!

كالآخرين هي .. كسولة ، تريد امتصاص البقية الباقية من جسده "النحيل" لم يشعر برغبة في أن يجيبها .. أمرها عجيب اليوم .. تسأله " ألم تفطر؟! " سؤال ليس من عادتها .. فكل صباح ترسل سهام العداء ..

– انظر إلى وجهك في المرآة ، إنك لم تأخذ قسطا كبيرا من الراحة.

–.....

– أتدرين لماذا ؟

– .....

– من سهرك طوال الليل في هذا البلاء الذي يسمى القراءة ، ماذا جنينا من وراء القراءة سوى الفقر وأكوام من الكتب والمجلات ، ضاق منزلها بها بدأت اسطوانة كل صباح .. سلطت نظراتها عليه قائلة.

– اليأس أصبح بلا ضفاف في نفسك .

نظر إليها وهو يبتسم ابتسامة تقول " يالك من ساذجة "

ارتدي ملابسه .. قالت وقد وقفت قبالته .

– ابننا " مدحت " يريد دفع مصروفات المدرسة ..

أخرج من جيبه ورقة مالية ، وضعها على المنضدة .. قالت قبل أن يستدير ملتقطا حقيبته وأوراقه .

– .. "ولمياء " .. تريد حقيبة جديدة للمدرسة ، وأنا أريد فستانا جديدا ..

ابتسم .. أخرج من جيبه ورقتين ماليتين ، نظرت إلى النقود وهي مفترة الثغر .. تشعر بالانتصار والزهور هرول مغادرا قبل أن تكثر الطلبات والتساؤلات .

الناس يسرعون للحاق أماكن لهم في الحافلات والسيارات العامة .. يركضون .. نساء .. رجال .. يستبقون .

اختار مكانا منزويا على محطة الأتوبيس ووقف .. يتأمل في الوجوه المنتظرة والغادية والرائحة .. دنا منه شاب وسيم .. ألقي عليه السلام ..

– ألا تعرفني يا أستاذ عبد السلام ؟!

– .....

نظر إليه بإمعان ، هذا الوجه يعرفه .. أجهد ذاكرته للتوصل إلى اسم صاحب الوجه ، ذاكرته مليئة بالوجوه ، وما أكثر الوجوه إلى هذا الحد أصبحت الذاكرة ضعيفة .. قال الشاب الوسيم :

– أنا تلميذك إبراهيم فهمي .. ألا تذكرني ؟!

– .....

أومأ برأسه مبتسما ..

– كنت تشجعني على أن أكتب الشعر وتوجهني ، هل مازلت تكتب الشعر يا أستاذ ؟

سبحت عيناه في الأفق ، لم يتكلم .. استطرد تلميذه قائلا :

– كنت دائما تنشر شعرك في مجلة " الآداب " وكنت أنا وغيري أتابع قصائدك لماذا توقفت ؟

– .....

لم يتكلم .. نظر إلى تلميذه بحنان ، صرير عجلات الأتوبيسات يجلد الأسفلت .. ضجيج يوقظ الموتى ..

استأذن التلميذ من الأستاذ عبد السلام قائلا :

– يبدو أنني قطعت عليك حبل أفكارك ، معذرة يا أستاذ ، لقد تناسيت أنك شاعر ، لكن فرحتي بلقائك كانت أكبر من أي شيء .

– .....

ودّعه الأستاذ بنظرة مجهولة الهوية ، لم يفمهما تلميذه ومشى وهو يضرب كفا بكف ، وهو يتمتم متعجبا من أمر أستاذه .

أسرع الأستاذ عبد السلام بصعود أحد الأتوبيسات .. نظر إلى ساعته ، ترى هل يستطيع أن يصل إلى المدرسة في الموعد المحدد أم أنه سيتأخر ويتعرض لمشاكسات ناظر المدرسة ؟ ، تحسس عينيه .. شعر بتورمهما .. وشعر بمرارة في حلقه .. المرارة اليومية تتكرر كل يوم ، الأتوبيس يضج بالركاب .. بالزحام .. بالوجوه، كل يوم يرى نفس الوجوه .. لم يجد مقعدا خاليا فظل واقفا بجوار رجلين يتحدثان ، الرجل الجالس بجوار النافذة يقول لزميله المجاور له :

– المشروع الذي حدثتك عنه ، ربحه مضمون مائة في المائة .

– أليس محتملا أن نخسر ؟

– لا .. ليس محتملا ، عبد العزيز بك شريك معنا فيه ونخسر!!

– لكن ..

– لكن ماذا ؟!

– ربما ..

– ربما ماذا .. لا تكن جبانا فهذه فرصة العمر .. !!

نظر الأستاذ عبد السلام إلى الرجلين الجالسين بامتعاض وسخرية .. سار خطوتين وجد بجواره رجلا وامرأة ، جالسين ، قالت المرأة للرجل الجالس بجانبها – بانفعال هامس :

– لم تعد تهواني كما كنت تهواني قديما ، منذ أن تزوجنا ومعاملتك لي تغيرت .. هل زواجنا قتل حبنا ؟!

رد عليها زوجها الجالس بجوارها ..

– لا أبدا .. المسئولية والمتاعب يخنقان الحب ..

قالت بتعجب وحسرة ..

– معنى هذا أن حبنا قد خنق !!

قال زوجها وهو ينظر إلى زجاج النافذة التي بجواره بشرود ..

لا .. لا أقصد ..

قاطعته قائلة بهمس :

– أعلم أننا نعاني ضائقة مالية .. لو كان بيدي لساعدتك و .. تمتم الأستاذ عبد السلام .. مط شفتيه في أسف وحسرة .

وقف الأتوبيس .. نزل منه .. نظر إلى السماء ، لمح فيها سحابة كبيرة داكنة نظر إلى أديم الأرض ، محاولا أن يبحث عن معنى لأشياء كثيرة مستحيلة ..

" لماذا تتعب نفسك ؟

ليتني لم أكن أنا "

عندما دخل حجرة المدرسين بالمدرسة التي يعمل بها .. كان زملاؤه يتغامزون ويتلامزون .. وينظرون إليه وهم يبتسمون ابتسامات خبيثة لم يهتم .. تجاهلهم .

نفس رحلة الذهاب ، كانت رحلة الإياب إلى بيته ، وكانت أكثر مشقة .. الإرهاق يصفعه .. والحزن يركله .. لأسئلة بلا إجابات يتركها كل يوم معلقة إلى اليوم التالي ..

تولستوي.. دستويفسكي .. تشيكوف .. زولا .. بلزاك .. العقاد .. طه حسين ، اخرجوا من قبوركم ، انفضوا عنكم التراب ، ردوا الاتهامات التي تثار حولكم ، تكبر الكآبة كورم خبيث يتضخم إن لم يجتث .. الحديث عنكم يصل إلى حد التسلية والسفسطة .

زوجته .. حاول أن يعدل من طباعها ، لكنه فشل وياله من فشل ، أبناؤه يستهزءون ويضربون بنصائحه عرض الحائط .

حين عاد من عمله في ذلك اليوم ، كان يشعر بحزن دفين ، يغتال بسمته .. دلف إلى الحارة التي يسكن بها .. كانت مظلمة كئيبة .. مشى بخطوات متثاقلة .. عرج إلى مدخل بيته .. كان المدخل مظلما .. لفت انتباهه همس في الظلام .. وقف بعد أن صعد درجتين من درجات السلم ، اتسعت حدقتاه في الظلام وهو يبصر ابنه البكر " مدحت " يحاول أن يقبل ابنة الجيران ، وهي تمانع ، فتاة على شفتيها القرمزيتين ابتسامة مراهقة وفي عينيها يتأجج الحب والرغبة ، رغم أن في عينيها بياض النهار وصفاء الضحى ، وفي وجنتيها يربض الإحمرار الأنثوي باقتطافه ، البنت تمانع بدلال ..

– لا .. لا يا مدحت ، ربما أحد يرانا .

– لا أحد يرانا .. أعطيني قبلة .

أمسك بخصرها .. قالت وهي تبتسم باغراء :

– هل صحيح تحبني ؟

– نعم .. نعم أعطيني قبلة .. لا تكوني بخيلة في عطائك !

– .....

شاهد ابنه " مدحت " وهو يمسح بيديه على خصر الفتاة وصدرها وخديها .

أمسك بيد الفتاة .. استسلمت .. قبّلها في فمها

راح الأستاذ عبد السلام يتأمل المشهد بعينين جاحظتين أمسك رأسه بكلتا يديه ، شعر بغصة في حلقه .. لم ينبس ببنت شفة لكن انتابته رغبة جامحة في البكاء .. خناجر .. سكاكين .. سيوف .. رماح .. تقطع صدره .. واصل صعوده بخطى بطيئة ..

" ملاحظة أخيرة سردتها زوجته "

كان يدخل إلى داره كل غروب .. ينتبذ ركنا قصيا .. يجلس وحيدا يقرأ في كتاب ، يقوم يصنع لنفسه القهوة .. كان يتحدث بنبرات مختلفة ويهمهم همهمات غريبة ، لم نكن نفهمها .. في الأيام الأخير حاولت أن أخرجه من عزلته .. سألته ..

– لماذا لا تحدثنا ؟

– .....

– نحن في حاجة إليك وإلى آرائك ؟

– .....

– هل أصنع لك قهوة وأصنع له القهوة ، لكنه لا يشربها .. حاول ابنه البكر " مدحت " أن يعرف سبب عزلته ..

– أبي .. هل تخاصمنا ؟

– .....

– ما الذي يضايقك ؟

– .....

في الزحام

وقف الأتوبيس .. تزاحمت الأجساد .. تلاصقت في صراع مع الصعود والهبوط .. البعض يفعل محاولة يائسة للصعود للأتوبيس ، يجذب الذي أمامه ، فيميل الجميع .. يعلو اللغط .. السائق يستخدم آلة التنبيه المزعجة منذرا بانطلاق الأتوبيس ، يتحرك ببطء .. امرأة سمينة الجسد تخبط بكلتا يديها على الجدار الخارجي للأتوبيس .. شق طريقه وسط الأجساد البشرية بصعوبة بالغة .. بعناد خال من الانفعال .. كان يسير .. حبات العرق طفت على بشرته السمراء التصقت خصلة من شعره بجبهته .. الكتل البشرية تدفعه .. يصارع الزحام .. وجد نفسه يقف على قدم واحدة لا يجد مكانا لقدمه الأخرى .. تجول بعينيه الجميلتين ، لمحه صديق له كان جالسا .. قام من جلسته ناداه :

– تفضل اجلس .. أمسك بيده ، أصر أن يجلسه مكانه ، شكره وجلس .. راحت عيناه الخضراوان الواسعتان تتنقلان عبر الوجوه .. نظر يمينه تعلقت عيناه على تلك الجميلة التي تجاوره في المقعد ..

توهمت أنه يمعن النظر إلى وجهها .. يعريها بنظراته .. رفعت حاجبيها باستنكار ، لم يحول نظره عنها .. أشاحت بوجهها عنه .. حاولت أن تبدو غير مهتمة بنظراته وتشغل نفسها بالنظر من نافذة الأتوبيس المجاورة لها .. لحظات حولت نظرها من النافذة إليه .. لم تستطع أن تحجب انفعالها قالت :

– يا أستاذ .. لماذا تنظر إليّ بتمعن هكذا ؟

قطب جبينه .. أخرج من جيبه نظارة زجاجها سميك .. أسود، رفعها إلى عينيه وهو يقول :

– معذرة يا سيدتي .. أنا لم أقصد النظر إليك بوقاحة ، لأنني .. (صمت)

نظرت إليه نظرة حيادية ، لا تحمل معنى الاستنكار .. استرسل قائلا:

– أحاول رغم !! أن أخفي عجزي .. لا أرتدي النظارة السوداء إلا عند الضرورة ، حتى لا تتطلع إليّ الأعين باشفاق .. أريد أن أنعم ولو للحظات بأني متساو مع الأسوياء ولو كان وهما أحاول أن أصدقه ..

حاولت أن تتكلم قالت : أنا ..

ماتت الكلمات على شفتيها ..

صمت برهة ثم قال هامسا :

– ليرحمني الله .. أنا آسف يا سيدتي لإزعاجك بثرثرتي .

قالت بصوت خفيض .. كأنها تعتذر :

– أنا لم أكن أقصد أن ..

قاطعها :

– لا .. اني تعودت على مثل هذه المواقف ..

– هل لي أن أسالك سؤالا .. ربما يكون تدخلا مني في حياتك ..

– تفضلي .. سلي ما تشائين .

– لماذا لا يكون لك رفيق أو خادم ما يصحبك في الطريق والأتوبيس، وغير ذلك ؟

ابتسم وقال :

– إن كانت قد سلبت مني نعمة البصر .. فلم تسلب مني أشياء أخرى كثيرة ..

زادت ابتسامته إشراقا .. صمت .. حدق في اللاشيء .. شرخت حاجز الصمت قائلة :

– أرى بين يديك بعض الكتب .. هل تدرس :

– نعم .. أعد أطروحة ماجستير في النقد الأدبي .

ابتسمت المرأة ثم التفتت إليه قائلة :

– إنني أحييك على عزيمتك الفولاذية ..

– أشكرك على تحيتك التي نقلها إليّ صوتك الرخيم الذي يشي لي بملامحك الطيبة الرقيقة .. صوتك أيقظ الإحساس بالجمال في نفسي ..

تذرعت بالصمت .. لم تجب .. التفت ناحيتها قائلا بلهجة المعتذر :

– سيدتي عفوا .. هل أسأت الأدب .. هل ضايقتك بحديثي؟!

أجابت بصوت مكتوم :

لا ..

غرقت في الصمت .. اثنا عشر عاما مضت على زواجي .. نسيت أن صوتي رقيق وأن ملامحي جميلة .. الكلام العذب الذي سمعته من هذا الرجل الأعمى الجالس بجواري .. لم أسمعه منذ شهور أو ربما أعوام .. لا أذكر .. وإذا سمعته ما جدواه بلا إحساس به من قائله أو مني .

اثنا عشر عاما . بلا حب . كنت أتمنى أن أتم تعليمي . لكنه رفض .. برغم أنه لم ينل شهادات دراسية .

اثنا عشر عاما .. طاش خلالها صوابي من كثرة الهموم والمشاكل .. لماذا تزوجني؟! هل ليضمني إلى جواريه .. فأنا الزوجة الرابعة له .. "بمالي اشتريتك " .. يصرخ دائما بتلك العبارة في وجهي .

تدفقت مشاعر وتساؤلات كثيرة من أعماق نفسها .. ثورة عنيفة تجتاحها .. هذا الرجل الأعمى أيقظ في نفسها أشياء كثيرة .. كانت كامنة.

نبهه صديقه الواقف قريبا منه :

تهيأ للنزول محطتك القادمة .

نهض من جلسته .. قال بهدوء وهو ينحني قليلا :

– فرصة سعيدة يا سيدتي .. وآسف لإزعاجك .. قد وصلت إلى محطتي .

لم تتكلم .. نظرت إليه.. لم تتكلم .. خلع النظارة ، بدت عيناه الواسعتان الجميلتان يرتفع فيهما الاصرار .. اخترق الزحام بصعوبة .. تطلعت إليه بإمعان ترقبه وهو يواصل اختراق الزحام .

لأني أحبك

.. في الزحام وجدتك .. وفي الزحام فقدتك .. عندما حل الغروب وأسدل وشاحه على النهار ، كنت أسير في الطريق وحدي أبحث عنك .. الزحام – أبواق السيارات صياح لا أعلم مصدره – أنوار تسلب اللب ، أتمنى أن أستريح على صدرك الآن .. لقد تعبت من المسير ، هل تذكرين يوم التقينا .. ؟! في الزحام . كدت أسقط على الأرض لكني وجدت يدك الناعمة البضة تمسك بي حتى لا يختل توازني وأقع ..

ابتسمت لك شاكرا ، بادلتني الابتسام ، قدت خطاي إلى ذلك المكان الذي أجهله ، جلست بجواري تفرجنا على لعبة السكاكين ولعبة الأقنعة والساحر العجيب الذي يقف على المسرح، ويتحدث بصوت أجش ويخرج من قبعته الثعابين والمناديل الحمراء والصفراء والزرقاء .. و.. الناس يهللون . يضحكون "الله أكبر" وكأن حصنا منيعا قد فتح .. لاحظت أن يدي وجسدي يرتعشان تشجعت همست لي :

– هل دخلت ؟!

أغمضت عيني .. قلت لي :

– تعالى نخرج إلى الطريق حيث الهواء النقي لما خرجنا ، قلت لي :

– لم أعد أحتمل تلك التفاهات .. إنهم يخدعون أنفسهم ويخدعون الناس ، ولكني أعرف ألاعيبهم جيدا ولا أخدع بها .. سألتها : – كيف ؟!

أجبتني : – لأنها في الظلام ؟!

دون وعي استندت عليك ، تلاقت عيني بعينيك ، لاحظت سحرهما وعمقهما ووقارهما .. أخرجت منديلك الصغير .. مسحت به فوق جبيني مجففة قطرات العرق .. سألتك :

– من أنت ؟!

ضحكت ولم تجب ...

سألتك ..

– ها أتجرأ وأسالك – ما اسمك ؟

– يا عزيزي لا تهم الأسماء .. خبرني ماذا تعني الأسماء ؟

تذرعت بالصمت ولم أجد في ذهني إجابة لسؤالك ..

– خبريني هل من الممكن أن نلتقي مرة أخرى .. ابتسمت قلت :

– إذا أردت ؟

– بالتأكيد .. أريد أن نلتقي مرات ومرات ..

وتواعدنا على اللقاء .. والتقينا مرة أخرى ، شققنا الطريق بجسدينا الصغيرين وسط الزحام .. عطرك كان فواحا لا يقاوم .. رغم رائحة التراب التي تملأ الجو .. مررنا على عرافة ، قلت لك :

– تعالي نجرب حظنا ونرى النصيب !!

قلت لي :

– أنا لا أعتقد في هذا الكلام الفارغ ، كله نصب واحتيال .. للأسف مشكلتنا أننا نقنع أنفسنا بالخطأ ونبرره ، رغم معرفتنا المسبقة أنه خطأ ..

ضحكت .. قلت لك :

– يالك من فيلسوفة .. تعالي .. تعالي ..

أمسكت العرافة يدي .. تفرست خطوطها الطويلة والقصيرة..

قالت :

– النصيب والخير مكتوبان معها، وأشارت بسبباتها إليك واستطردت قائلة :

السعادة معها فلا تفرط فيها ..

ضحكت ، قلت لك : ألا تودين معرفة نصيبك ؟!

قلت لي باصرار :

– إني أعرفه ..

طوقتك بذراعي .. على حين غفلة .. قبلتك .. لففت ذراعي حـول خـصرك .. قطعنـا تـذكرتين ودخلنـا..رأينـا أناسـا يركبـون المراجيح..

قلت لك :

– تعالي نركب أرجوحة ؟

تغيرت ملامح وجهك وقلت :

– كيف تجرؤ أن تطلب مني هذا ؟!

ضحكت ضحكة طائشة ..

– خبريني .. ما الخطأ في هذا ؟!

– الخطأ أنك لا تعرفني .. أنا لا أفعل تلك الأشياء التافهة ولا أرضى بها !!

– كما تريدين ، أركب وحدي !

أمسكت بذراعي ونظرت إلى عيني بامعان ورجوتني ألا أفعل .

سألتك .. لماذا ؟

أجبتني بأجمل وأقصر إجابة سمعتها

– لأني أحبك !!

وخرجنـا وفـي الزحـام تهـت منـي .. أو تهـت منـك .. لكنـي مازلت أبحث عنك .

ضحى

(إلى ضحى .. تلك التي علمتني الانتظار ..)

" أحبك .. أحبك .. ولا أدري لماذا ؟ أو ماذا بعد ؟

"ضحى" ..

هذه المرة الأولى التي أناديك فيها باسمك فاعذريني، فأنا لم أكن أعرفه . ماذا تشكل الأسماء في ذاكرتنا سوى ارتباطها بأشخاص نعرفهم .. قد نحبهم أو نكرههم . إذن ماذا تعني الأسماء ؟

هذه هي المرة الأولى التي يخط فيها قلمي اسمك ، وهذه أول رسالة يبعثها لك شخص من عالم مجهول بالنسبة لك ، ستعجبين عندما تجدين رسالتي هذه في بريدك ، أراك تضحكين ببراءة وتقولين :

– رسالتك جاءت قبل موعدها بأعوام كثيرة .

لماذا أكتب إليك اليوم ؟

سؤال هام .. لكني لا أعرف إجابته بالتحديد .. كل ما أعرفه أن بداخلي تشوقا إلى مخاطبتك والبوح لك بما يمور في نفسي ..

لنبدأ من بداية الحكاية :

لا أدري متى بدأت الحكاية يا ضحى ؟ هل بدأت حينما تنسمت روحي الحياة لأول مرة .. صرخت صرخة متقطعة حزينة ..قالت القابلة لأمي : سيكون لابنك شأن عظيم .

أم بدأت الحكاية يوم استيقظت براءتي ، على محاولاتهم لوأد أحلامي ، كنت أتناثر أشلاءً وسياطهم تجلد مشاعري .. كنت وحيدا، لكني كنت أشعر بقوة لا أدري مصدرها .

– من هم هؤلاء ؟

– هؤلاء الذين يغتصبون حقوق الناس ويشترون الناس ويبيعون الناس ويبصقون في وجوه الناس .

دعيني أحكي لك الحكاية من حيث أرغب .. فأنا رجل دائم الترحال نحو الحلم .. (تلك المرأة الصغيرة ، الفتاة الخجولة .. لا أتذكر بالضبط متى وأين رأيتها أول مرة .. ربما رأيتها وهي تسير ذاهبة إلى مدرستها ، تحتضن كتبها إلى صدرها .. أو ربما رأيتها وهي تطل من شرفة دارهم ، لم أكن في حاجة إلى أن أكلف نفسي تعبا بالمغامرة في التعرف عليها عن قرب ، لكن كان يخالجني إحساس أن صورتي في مخيلتها صورة نقية لا يعكر صفوها أي شيء .. صحيح أنا رجل أحب المغامرة، ولدي عشرات من الصديقات، أنال ما أريد دون تمنع أو رجاء، لكن تلك الفتاة الصغيرة ، كانت تتأملني

بتمعن واشتهاء وخوف .. في نظراتها أمر مجهول .. عيناها تبحثان في عن شيء ما ..) ..

ضحى ..

سامحيني ، على تأخري في معرفتك .. كنت معي دائما، لكني كنت لا أعرف ما اسمك؟ يا أملا أنتظر مجيئه ، يعذبني انتظاره .. يا حلما قد أموت لكنه بداخلي ينبض بالحياة .. اسمك اقترن باسمي ..أليست هذه شهادة ميلادك .. إن الميلاد الحقيقي هو ميلاد الروح .. وأنا أومن أنك قد ولدت .. أي محاولة لإجهاضك هي محاولة لاغتيالي .. مالك تقطبين جبينك وتقولين :

– إني لا أفهمك ..

لست أدري .. هل يجب أن أهنئك وأهنئ نفسي بشهادة ميلادك التي أحررها لك الآن ، أم أرثي نفسي وأرثيك ؟!!

أخاف عليك من أن يغتالوك !!

الفتاة التي كانت تضم كتبها إلى صدرها ..أجلت اقتحام عالمها إلى حين .. (كانت تسكن في فكري لا مبالاة غريبة . كنت أذهب إلى الامتحانات كأني ذاهب لأداء أمر ثقيل على نفسي لابد منه ، وعندما تظهر النتيجة يخيل إلى أنها نتيجة شخص آخر لا أعرفه .. حتى الآن لم أستطع ايجاد تفسير لهذا الأمر ..)

الفقدان بين يدي واللقيا مجد والمشاعر الفياضة تندفع باندفاق .. وأظل أسير ، وأسير في ذلك الطريق الطويل الشاق ،

يصطدم رأسي بعمود من أعمدة الكهرباء أو الهاتف .. ورغم الدم الذي يسيل من رأسي أواصل الرحلة .. في المدينة يا ضحى ، عرفت أنني تحت أنظارهم بصورة مكبرة .. لم أخف .. لم أتلون .. لم أخضع ، لكن مرجل الغضب يغلي في أعماقي أحس بهديره في داخلي ، يريد أن ينفجر كبركان "فيزوف" .. عندما كنت أنظر في عيني أحدهم ، أرى البنادق والأسلاك الشائكة والسجان .. أراك تشفقين عليّ يا ضحى وتسألين :

– ما الذي يجعلك تتحمل كل هذا ؟

– المبدأ يا ضحى ، الذي علمني الجرأة ونزع من ضلوعي الخوف.

(الفتاة القروية الصغيرة ، التي تضم كتبها لصدرها ، لم تفارق صورتها مخيلتي ، صارحتني إحدى صديقاتها ، بأن الفتاة الصغيرة تحبني ، حبا صامتا .. لم أتعجب ، لكن سخرت من طريقة الفتاة في الاعتراف الساذج .. لماذا لم تؤجل الاعتراف حتى أصل إلى نهاية المشوار ؟ لماذا لم تصنع جسورا بيني وبينها ؟ لم أجد ما أقوله لصديقتها أو لم يكن لدي ما أقوله .. وبدأت رحلة الانتباه) .

أجل : بدأت رحلة الانتباه .. الشهداء بلا اسم .. ولا عنوان .. الرصاص الفارغ على الرصيف .. شريط الدم يسري ويسري .. تستطيعين يا ضحى بإحساسك أن تعرفي قانون العلاقة بين الأشياء .. النيل حزين .. الأنوار باهتة .. حملاتهم لاعتقالي تتلون في أردية

مختلفة .. قلمي كان مرآة .. عكست حزن المدينة وكآبتها ويأسها .. أيقنوا خطري ، فأشرعوا سيوفهم في وجهي.. وأنا وحدي أعزل .. يدمي إحساسي الحنين و.. التشوق و.. الجنون ..

تعرفت عليها تحت المطر ، الذي كان يتساقط ويبلل وجهينا.

راقبت تورد خديها ، وتورد أرنبة أنفها بالحمرة .. توطدت العلاقة بيننا.. الأنوار تمايلت ..التصقت بي أكثر وأكثر ضغطت بأصابع يدها اليمنى على كتفي .. أحسست بليونة أصابعها .. لسعتني أنفاسها ، أغدقت عليّ بنظراتها الحنونة ، الدافئة .. صرت أتخبط في رؤية الأشياء ، في رؤية عينيها الجميلتين ووجهها الرائع التقاسيم ، هربت إلى الصمت .. بيني وبينها ألف حاجز وحاجز .. ربما كان آخر الحواجز منصب والدها الكبير وسيارتها الفارهة .

أقف في مواجهتهم .. لا خوف يعتريني ، لا رعشة تهز أقدامي .. سخريتي منهم جعلت الحقد في نفوسهم يتأجج .

(كان يفصل بين قريتنا وقريتهم نهر .. وجدتها تفتح بوابات ونوافذ للحلم ، سجنتني داخل نفسها .. إننا نسجن الأشياء لأننا نخاف عليها أو نخاف منها ..

مني .. زورت الأحداث ، روتها للناس ، ووجدت من يروج لها أكاذيبها ، كنت أنظر للناس فأجد الدهشة تطالعني من عيونهم .. وا أسفاه .. حينما يكون للأشياء مرارة الصبار، الهوة اتسعت بيننا ..

وكشفت لها القناع الجميل الذي يخفي وجهها الحقيقي القبيح، وافترقنا ..

بعد أعوام ، جاءت ، لم أكن أتصور أنها ستجيء .. ربما هزها نجاحي المتواصل ، جاءت تقول أشياء كثيرة وكثيرة :

– أحبك .. لا مناص من الاعتراف ! كان داخلي يضحك .. يعربد بمجون .. أضحك من سذاجتها واعترافها الذي جاء بعد فوات الأوان !!)

كنا في ذلك الوقت نحارب في أكثر من جبهة .. نأمل أن ننتزع الاعتراف الرسمي بنا ، تحدثوا عنا في وكالات الأنباء والتليفزيون والصحف والمجلات .. أفكارنا بدأت تنتفض تعانق الحرية .. الوطن ليس خريطة أو معالم أو تضاريس أو حدود .. الوطن إنسان .

(صورة الماضي تترى في مخيلتي .. أتذكر "هدى" وهي متعلقة بذراعي .. اشتم في حديثها لبن الطفولة .. أحس بنظراتها تسكرني .. وأشعر بنكهة دفء جسدها .. قالت وهي تتأملني بعمق:

– للحب شبق موجع ، لحظات مشبوبة بالنشوة والدفء .

ضحكت من أعماقي ، لأنها قلبت في ذهني آمالا موءودة .. تألبت على آكام من الآلام .. لكني ارتحلت عن " هدى ") .

هل يجب أن أسافر .. لا .. إن حياتي يجب أن تكون هنا .. حيث أقاوم العفن والظلم ، فالمدينة مليئة بالأحداث والتغيرات والحقائق أنا .. من أنا !!

أنا يا ضحى ، رجل فقير ، بسيط ، لا أملك إلا مبادئي التي أشعر أنها أكبر من الفقر والألم والفرح والضعف والقوة والهزائم والانتصارات .. رمقني رئيس التحرير بنظرة خبيثة وقال : للأسف مقالك الذي نشرته الشهر الماضي أحدث أزمة بين .. وكيل الوزارة والمجلة..

– هذا أمر طبيعي فالحقيقة دائما مؤلمة .. ومادام مقالي تؤيده المستندات فليفعل وكيل الوزارة ما يشاء.

نظر إليّ رئيس التحرير نظرة بلا معنى وقال : يجب أن تتوقف عن كتابة مثل هذه المقالات في الوقت الحاضر حتى لا تعرضنا وتعرض نفسك لمزيد من المتاعب .

الغضب يركلني بقسوة ضارية ، لقد ذقت طعم الهزيمة ولذة الانتصار، وخدعت كثيرا وطعنت من الخلف ، لكنهم اليوم يهددونني .. وأنا يا ضحى رجل بسيط .. أكاد أصدق ما أقرأ في صفحات الحوادث .. أكاد أصدق ما أقرأ في سجلات وزارة العدل من جرائم وخطايا يقترفها البشر .. الكل يكتب ويشهر ولا أحد يتساءل : لماذا يقترف الناس هذه الجرائم ؟ لا أعرف الدسائس !! أنا مثل طفل بريء .. قد يخدعني لص عابر !!

أيها المسكين .. يا أنا ..

الآن صار عليك أن تختار .. حاذر ربما يسرقون منك عمرك دون أن تدري !! هم لصوص محترفون . حاذر ، ربما تخطيء في اختيارك، نعم : سأختار حتى ولو أخطأت ، المهم أن تكون لي حرية الاختيار .. أنا لست نبيا حتى لا أخطيء .. حاذر إنهم يهمشون إيمانك ويضربون بكل افتراضاتك عرض الحائط .. وليكن .. اخترت أن أمزق أشرعة الضباب الكالح التي تسير مراكب حياتنا .

(قالت : أنت مثالي .. لكني أحبك بجنون .. خذني بين ذراعيك ..ياليت كل البشر يؤمنون بما تؤمن به ويكافحون من أجله .. تأملت وجهها الناصع البياض وصمت .. دائما أغضبها فلا تغضب ولا تعتب على ما أفعل رغم تألمها !!

قالت : عندما تغيب أو تفترق عني ولو لمجرد الليل ، أتمنى أن تأخذ مني روحي وأبقى ساعة معك ..

قالت وهي تنزف دمعا : أصبحت لا أحتمل البعد عنك ولا أحتمل القرب منك ، في بداية معرفتي بك ، عندما كنت تغيب يكون لدي أمل في أن أراك مرة أخرى ، كنت آمل في الغد رغم خوفي منه.. انهم يرصدون كل فكرك ، حاذر ، عالمهم بلا محاكم .. بلا شرائع .. بلا قوانين .

قلت : مهما كان صوت الباطل عاليا فصوت الحق أعلى .

ابتسمت وقالت : لم تتغير منذ أن عرفتك .

حدقت في بؤبؤ عيني ، أشارت بسبابتها وقالت : أخاف أن تدمرني بمبادئك !!

كان بيني وبينها ألف حاجز ، يعوق توحدنا .. قلت لها : حاولي أن تكرهيني !

قالت : عندما حاولت أن أكرهك كرهت نفسي ولم أكرهك!)

أحس بالاختناق وأبحث عن منقذ ينقذني من وعثاء السفر .. وا أسفاه . حينما تشعر بالظلم ولا تستطيع دفعه .. ساعتها ستشعر أن نفسك سرقت وأرضك نهبت وشمس طموحاتك مكسوفة .

" هاملت " صوتك يزلزلني : كلمات .. كلمات .. سعاد .. أعطتني مفتاح اللعبة وقانون حل المعادلات الصعبة .. أحس بنكهة صوتها الرخيم وهو يفرض افتراضات ويقدم الحلول.. هاجس الحزن له لفح قاس.. قالت:

– سأوقد لك شمعة ..

صمت .. اختلطت مشاعري .. نمت في صدري آلاف الرغبات المتناقضة ..

سعاد .. رغم ذكائك لم تستطيعي ايجاد نتيجة لمعادلتك معي .. لماذا ؟

أعجبني فيك ، أنك فتاة مزحومة بأنوثتها ، مشحونة بالأسرار .. خلعت أمامي كل ثياب البراءة واستسلمت بلا صراخ ولا اغتصاب..

أتضحكين يا ضحى ..

– كل هؤلاء عرفتهم ؟

– نعم وأكثر من هؤلاء .. رغم أني لست وسيما يا ضحى .

قال والغضب النافر في وجهه :

– أرجوك لا تتدخل في هذا الموضوع ولا تكتب عنه ؟

– لماذا ؟

لأنهم لن يتركوك تقول الحقيقة ..

– والنتيجة ..

– سيحاصرونك .

– " قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا " ..

– يمكنك أن تتراجع عن موقفك وسأساعدك على هذا ، ولا داعي للعناد ..

– والحق و....

– القوة فوق الحق ..

إلهي ..ساعدني ..

والتقينا .. أنا والمرأة – الحلم .

(وجدتها في قريتها مازالت تضم كتبها إلى صدرها بخشوع .. وتنظر إليّ بصمت وانبهار ، التقينا وأنا مثقل بالتجارب والهموم والتهديدات ..

قالت : ما ضيك مع النساء لا أنوي إثارته ، لأنك ستبدأ معي من جديد .

كانت عيناها تتكشفان وترتدان إلى عالم آخر لا أعرفه .. مشدود إليها بألف سبب وسبب ، إذن ما المشكلة ؟

– المشكلة أني صنعت لها جناحين ، فأبت أن تطير بهما ..

كنا نسير على الإفريز الرطب حين قالت : لابد أن تكتب إلى ضحى لابد .. حين تقرر أن تمسك بقلمك وتكتب لها ، فإني سأكون لك وتكون لي) ..

الآن وحدي في العراء ..

بيني وبينهم وطن وإنسان .. وكلمة جريئة .. ترفض أن تسجن ..

ضحى ..

أقول لك شيئا ربما تضحكين منه .. وأنا أسير في شوارع المدينة وحدي ، أحب أن أنظر للفاترينات ، لا إراديا أعد ما في جيبي من نقود ، ثم أحاول اقناع نفسي أن بمقدوري شراء أي شيء .. فستان لك .. حقيبة يد .. حذاء .. لعبة .. فنجان قهوة ..

ها أنا أكتب إليك .. هل تعلمين من أنا ؟!

وهل تعلمين من أنت ؟!

أنت يا أغلى الأماني عندها .. أنظري إليّ .. ستجدين عيني لم تفقدا براءة الحب وشفتي محرورتين بلوعة التوق .. أعلم أن بيننا قوى أكبر منا .. بيننا ماض وخوف ، نهر وبيوت ، مدن وعسكر ، ورغم ذلك .. أكتب إليك في مغتربي .. فتعالي ضمينا إلى صدرك .. طهرينا من الخطايا .. أسكنينا ضلوعك .. يا نبضا يجمعنا وحلما نسعى إليه .. وقبلة نتوجه إليها.

أرأيت حكايتي ؟ ..

حكاية رجل جمع في نفسه كل طموحات العالم .. إنها حكاية كل الطيور الصغيرة التي تسعي لتعرف طريقها .

١٩٨٨ / ١٢/١٠

قـرار

تأملت وجهه سألته :

– أين تريد أن تلقاني .. ؟!

كان سؤالها مفاجأة له ، فقال :

– أريـد أن التقـي بـك فـي المـساء ، وفـي الجوامـع وفـي الكنـائس والأديرة، وفي الصحراء حيث النقاء ..

ابتسمت ابتسامة كبيرة .. نظرت إليه بشراهة وقالت بمرح :

– أنت خيالي جدا .. ورومانسي مجنون !!

أومأ برأسه وقال :

– ربما ..

– هل تصدق أنني أحبك ؟!!

– .....

– ابتسم ..

– استطردت قائلة :

– ورغم حبي لك ، لا أريد أن أقترن بك ..

– لماذا ؟! لأني متمردة أسير في المظاهرات ضد الحكومة ، وأقرأ كثيرا وأضحك أكثر عندما تنام مدينتي .

– ربما ..

قالت وقد اتسمت على وجهها سمة الجدية والوقار :

– أحبك عاشقا ..

ضحك .. غمغم ..

– وأنا .. ألست عاشقا ؟!

رمقته بنظرة فيها تحد ومرح ..

– أعرفك منذ زمن ليس بالقصير ، ولكني لم أكتشف أنك أحمق بهذا الشكل !!

حملق في وجهها بدهشة ولم يتكلم ..

قالت وهي تبتسم :

– حدثني بصراحة .. هل تحب الكذب ؟!

– نعم ..

– هل تمارس النفاق ؟!

– أحيانا .

ركضت بسرعة خلف التلال ، حث خطاه على اللحاق بها .. ركض خلفها .. وقفت تأملته كأنها تراه للمرة الأولى .. انساب صوتها حزينا ..

– أنا .. "اختلط صوتها بالبكاء .. استرسلت .."

– أنا أحبك .. أحبك بجنون أيها المجنون ..

– وهل حبك لي يدعو إلى البكاء ..

– نعم .. لأنك .. "لم تستطع أن تغالب الدموع .. أخرج منديله من جيبه ناوله لها .."

– جففي دموعك .. ما رأيك في أن نتوحد ..

– أتمنى هذا .. لكن توحدي معك صعب .. صعب ..

– وأنا ..

– لقد تأخرت .. إنهم ينتظرونني ..

قال وكأنه يعاتبها :

– كنا نلتقي قديما كثيرا .. أقبلك .. أخطف منك القبلات .. هل تذكرين؟! كنت تهربين مني في دلال .. هل مازلت تذكرين أيام كنا نذهب إلى البحر ونغتسل .. لكم غرقت في حبك ..

– ضحكت وقالت : ثم ..

– ثم تهربين مني اليوم ..

وضعت يدها فوق جبينها كأنها تتذكر شيئا ما ..

لم تسأل نفسك .. لماذا ؟!

– أعلم السبب .. لكن .. خبريني هل تخافين ؟!

– مما أخاف ..

– من الغربة .. من الشرطة .. من الذين يخلعون الأرجل ويجرعوننا العلقم ..

قالت بإصرار عجيب :

– أنا لا أخاف ..

قال وهو يتأمل مفاتن جسدها :

– جسدك جميل .. ألا تخافين عليه ؟ ..

قالت وقد ضاعفت من إصرارها ..

– قلت لك ، أنا لا أخاف ، هم الذين يخافون مني !!

سألها :

– قولي بصراحة .. هل فكرت في بيع جسدك ؟

ضحكت وقالت بسخرية لاذعة :

– أنت حيوان .. حيوان يعيش في صورة رجل ..

– حتى لو كنت حيوانا .. ألست حيوانا وديعا .. !

سألته بسخرية :

– هل مازلت تكتب الشعر ؟!

أجابها بابتسامة ليس لها معنى ..

وعند مفترق الطرق .. افترقا .. وعيونها دامعة .. متعبة .

١٩٨٨/١/٧

هل حدث هذا ؟.. ربما

لا أخفي عليك انني كنت في تلك اللحظة التي توقف فيها الترام في المحطة ، كنت أراقب نفسي وأحصي اختلاجات مشاعري بدقة بالغة .. وهذا في حد ذاته أمر مدهن بالنسبة لي ، فأنا لا أراقب نفسي الا عندما أبحث عن شيء فقدته وهو عزيز عليّ جدا ، أو عندما أنتظر مجيء شيء أو شخص عزيز عليّ .

هبطت من الترام .. أصابعي كانت قابضة على ما أحمله من جرائد ومجلات اشتريتها قبل صعودي للترام ، عبرت شريط الترام متجها إلى المكان الذي سأقابلها عنده .. للوهلة الأولى انقبضت مشاعري .. اقتربت أكثر وأكثر ، وجدتها واقفة تنتظرني ، خالجني إحساس بالحبور وأن العالم الذي يحيط بي واسع جدا وأن القدر كف عن اضطهاده لي – كما أدعي – تعانقت عينانا .. آه .. يا .. إني أشعر أن هذا اللقاء يغسلني ، يطهرني ، تمشي البراءة حولي .. ها أنا أعود نقيا منقى .. ها هي الشواطيء تفتح أبوابها وتضيء الفنارات .. ملامح وجهها الطفولي تعيدني إلى الزمان القديم ،

احتضنت يدي بتشوق .. رمقتني بنظرة سريعة .. ابتسمت .. أيقنت أنها تعرف الحب كما تعرفه الطيور .. رحبت بي ، هممت أن أعبر الطريق .. أوقفتني بقولها :

– إلى أين ؟

حدقت في عينيها .. وجدت الترقب رابضا فيهما .. لم أتعود أن يسألني أحد " إلى أين ؟" ربما لأني أعرف طريقي جيدا .. لم أجبها .. صممت على عبور الشارع ..

أعادت السؤال الصغير .. الكبير في جوهره : إلى أين ؟

لم أجبها .. كررته مرة ثانية وثالثة بإصرار غريب .. سؤالها يسحبني من عالمي ، إلى عالم آخر أجهله .. سؤالها يشد أصابعي المتشبثة بطريقي الذي أعرفه جيدا .

لمَ ، لم أجبها ! لا أدري لماذا ؟

لمَ ، لم أحاول إقناعها ! لا أدري لماذا ؟

قالت كلاما كثيرا متقطعا ، لم أنتبه له ، أو لم أهتم به ..

ربما تمنيت ألا تقول مثل هذا الكلام في لقائنا الأول ..

قالت : سنركب الترام إلى المكان الذي تريده .

قلت بعناد أعرفه جيدا في نفسي :

– لا . سنسير على أقدامنا ..

قالت : أنا متعبة جدا و .. هل سنسير كثيرا .

نظرت إليها بامتعاض ولم أجبها .. تمنيت أن تغير مجرى حوارها معي ، فأنا لم أتعود ولا أود أن أتعود تلك الطريقة .. لم تجد مفرا إلا أن تذعن لرغبتي وتسير .. عادت تحدثني كيف غامرت بلقائي وسط الظروف القاسية ووسط رقابة الأهل الصارمة و.. قالت أشياءً كثيرة تمنيت ألا تحدثني عنها ، ولنتحدث في ما هو أهم، بدلا من الحديث في التفاهات ، لا تقل إن التفاهات هي التي تخلق الأشياء الكبيرة ، بكل تأكيد هذا صحيح ، لكن إذا كنا نعلم هذه التفاهات جيدا فلا داعي لتكرار ذكرها .. قاطعتها :

– إذا استمر حديثك بهذه الطريقة ، فأفضل أن تعودي من حيث أتيت.

فوجئت بما قلت .. ارتبكت .. قالت :

– كنت سأكتب لك برغبتي في أن لا نلتقي و ..

– تستطيعين أن تستدركي الأمر وتستطيعي العودة .

– لكن مجيئك من البلاد البعيدة ..

أذناي قاطعتا حديثها .. خالجني إحساس بالألم والجرح قالت :

– أنت منفعل جدا ..

بعد مقولتها الأخيرة ، عزمت أن أتركها وأنصرف .. لكني كظمت مشاعري الضجرة وصمت .!!

الكلمات كانت ترتعش بين شفتيها بشكل ملحوظ .. بدأت أرقب سلوكها المضطرب في حديثها .. انفعالها .. صمتها .. خطواتها .. كتبها التي تضمها إلى صدرها .. لفتاتها .. نظراتها .. إيماءتها .. هل تورطت صغيرتي في هذا اللقاء ؟!

سألت نفسي : (لماذا نحن على باب الحصار نظل حيارى؟)

– هذا أول لقاء يجمعنا وحدنا .

ردت بسرعة :

– وسيكون آخر لقاء يجمعنا بهذه الطريقة .

أية طريقة تلك التي تعنيها صغيرتي .. نعم إنها الطريقة التي ورطتها في مواجهتي .. صمت .. لكن داخلي كان يتآكل ، ربما كان في نفسي وتكويني وتفكيري من الخصوصية ما يشعرني بأنها تجرحني .. كلامها صخرة مسننة تنزل على يا فوخي ، فتجعلني أنكمش .. بشيء من التوجع كانت في نفسي رغبة عنيفة في أن أصفعها .. هكذا مشاعرنا تتبدل إن لم تجد من يحتضنها ، منذ دقائق كنت في حاجة إلى أن أضمها إلى صدري والآن بحاجة إلى أن أصفعها ! كنت أشعر بالذبول يخيم على مشاعرها وحركاتها .. عيناها كانتا حائرتين، تنقبان عن شيء ما، تحدق في الأشياء .. في الوجوه .. في العربات .. في أسفلت الشارع ، في ترقب وخوف .. إنها عطشى للأمان .. ترى هل السر المزروع في صدرها أنبت خوفا؟ من ماذا ؟

مضطربة .. مضطربة .. وأنا هل كنت مضطربا ؟ .. لا أظن!!

قلت لها : العالم المحيط بنا واسع جدا!! صمتت، نظرت إليّ بتمعن، لا أدري أكانت تتأمل ملامحي لتتأكد من أن الذي يقول هذا الكلام أنا أم غيري ، شخص عاقل أم مجنون .. ربما لم تفهم ماذا أعني ؟ .. واعجبا .. أحيانا يتساوى العاقل مع المجنون، داعبتها : أنت قصيرة و ..

قاطعتني : أنا فخورة بقصري ، ولن ألبس حذاءً له كعب عال، ضحكت من داخلي بصخب ماجن ، لقد فهمتني خطأ . غرقت في خيبة الأمل وفي نشوة اللحظة عندما جلسنا .. خف توترها ، لكن عيناها كانتا مضطربتين.. سعدت بمشاعري سعادة طفولية غير متناهية ، لأنني استطعت أن أتحكم فيها – في تلك المشاعر– وأحتوي في بوتقتي اضطرابها، سألتني عن أشياء كثيرة ، أجبتها ، وأشياء كثيرة أجبتها عنها بدون سؤال ، لم أتعمد أن أسألها ، لأنني لا أحب أن ألعب دور المحقق .. حدثتني عن أشياء قليلة الأهمية بالنسبة لي ، لكنها كانت في غاية الخطورة ، لتحكمها في استمرار علاقتنا .. حاولت جاهدا أن أدلف إلى عالمها الخاص .. عندما سألتها : كيف تفكرين ؟ ابتسمت ، ومطت شفتيها وهزت كتفيها بحركة لا إرادية وقالت :

– لست أدري ماذا تعني ؟

رغم تشنج الكلمات في حلقها ومحاولاتي المستميتة في جرجرتها ، إلا أنني شعرت أننا بدأنا نتفق ، أمامها لم أستطع أن أتلاعب بالكلمات ولا أن أبني أهراما ولا حضارات ، لا أدري لماذا؟

" خذيني أعانق مشاعرك .. مدي إليّ ظلالك .. "

عندما قمنا من جلستنا ، عزمنا أن نركب الأتوبيس بدلا من الترام .. وجدنا مقعدين خاليين لكنهما غير متجاورين ، بمعنى أنه يجلس بجانبها شخص تجهله ويجلس بجانبي شخص أجهله أيضا جلست في المقعد الأمامي – وهو أول مقعد خال قابلنا – وجلست أنا في المقعد الخلفي لها .. يا للعجب .. بهتت من المفاجأة .. إن الجالس بجوارها أحد الذين يحاصروننا، أحد الذين خافتهم عيناها .. أحد الذين حذرتني منهم .. لما تبينا هذا كان الشخص الجالس بجوارها ، بالنسبة لكلينا ، أشبه بعفريت مثل الذي نراه في الكوابيس .. نظرت إليّ نظرة طويلة حزينة ، ربما ندما أو خوفا أو .. لا أدري بالضبط معناها .

وعدت أسأل نفسي : لماذا نحن على باب الحصار نظل حيارى؟!

١٩٨٨/١١/١٤

انتظـار

حـدد لـي الموعـد والمكـان .. يـا للمـصادفة ! وصـلتني دعـوة لحفل زفافها اليوم .. في نفس المكان الذي تواعدنا على اللقاء فيه.

فـي الموعـد المحـدد .. كنـت أنتظـره .. أخمـن ملامحـه .. تجاعيـد وجهـه .. ابتـسامته .. حديثه ، تـرى مـا لـون بـشرته ؟ مـا لـون عينيه ؟ لقد أحببت أفكاره رغم أننا لم نلتق مرة واحدة .

جلـست أنتظـره وحـدي .. فـي صـالة "الـشيراتون" الواسـعة ، التي تضم صنوفا مختلفة من البشر من مختلف بلاد العالم طلبت فنجان شاي .. على يميني كانت تجلس فتاة بيضاء صارخة الجمال تتأمـل وجـوه الجالـسين والغـادين والـرائحين .. قبـالتي كانـت تجلـس امرأة ممتلئة الجسم ترتدي ثوبا قصيرا .. يغازلها رجل يجلس قريبا منها ، تنظر إليه وتضحك .. يبادلها الرجل الضحك ..

جئتُ أبحث عن ذاتي ، فرائحة الفجر تعلن عن قدوم قوافل النهار .. الحلم خمرة معتقة تسكرنا .. الوهم يوازي الهلاك .. ماذا عليّ أن أواجه ؟ أشياءً لا حصر لها .. أنا فقير يا سيدي .. لكنني

أملك الحلم .. ترى من وهبه لي ؟ وأنا الفقير .. المعذب .. المشرد .. المتعقل!!

الفتاة البيضاء الجالسة بجواري .. تأملتني بإمعان .. أشرقت شفتاها بابتسامة لي .. بادلتها الابتسام لكن ابتسامي كان باهت المعالم..

آه من ذاكرتي ..

سلمتني إليك .. سلمتني إلى الوجه البريء الذي تعذبه الحيرة.. والعينين المخضلتين بالأمل والشفاه المرتعشة في استكانة .. خواطر شتى .. متداخلة .. متناقضة .. تمور بداخلي ، أشعر أني سأظلمك ، أو تظلميننني أنت بلا قصد .. هل تذكرين حينما قلت لي:

لابد أن تتفاءل بالمستقبل .

قلت لك : خائف من أنياب المجهول ، لكني أشعر أن مشاعري فوق الخوف .

آسف ..

لا أدري ما هذه الهواجس .. لكنني أحس أنه لا ذنب لي فيها .. أو ربما أتوهم هذا ..

أجلس الآن وحيدا ..

الفتاة البيضاء، صارخة الجمال ، خرجت من الباب لا أدري إلى أين؟ والرجل الذي كان يغازل المرأة اصطحبها واتجها إلى المصعد !

بدأت أرتشف الشاي مشروبي المفضل ، قفز إلى ذهني السؤال : لماذا حينما نحب أي شيء ندمنه ؟!!

قلت لنفسي مرارا ، "اطردها من ذهنك فمشوارك طويل" ..

لكنني وجدتك يا أميرة تتغلغلين في دمي وتسرين في شرايين حلمي المأمول .. كيف أصدق نفسي .. بعد كل تجاربي ، أصغي لصوتك أنت بالذات .. وأهفو لوجهك أنت بالذات .. تقولين :

– أنا لست وجلة ولا خائفة .. استسلامنا لليأس هزيمة .

– لكن الخوف سيدنا ، حاكمنا .. إنني لا أميل إلى حزب أو أمشي في مظاهرة !!

– أنا لا أحب المظاهرات ولا السياسة .

آّه .. يا أميرة ..

ها هي الحقيقة تختفي وقت الضحى .. ماذا يعني هذا ؟

ما زلت تباركين الأمل الذي يجمعنا .. ألبستني ثوب الصمود وهذا يجعلني أشعر بشيء من القوة .

ثانية : عليك قبول خالص اعتذاري ، فخواطري تتدخل في تشكيل ما أكتب .. مفردات لغتي صعب أن أكبح جماحها .. أريد

أن أقول ما أريد وأفعل ما أريد .. وهذا يدغدغ نرجسيتي ويرضي غروري.

الوحدة علمتني الصبر ..

نظرت إلى الساعة .. إن الرجل تأخر عن موعده ، ترى هل نسي موعدي معه ؟ ترى أين هو الآن ؟

قالت : عندما تصبح كاتبا مرموقا ستنسانا ..

رسمت على وجهي شبح ابتسامة .. لكني ساعتها شعرت بانقباض غريب ، لا أدري مصدره .. "أنا لست لك .. وأنت لست لي .. حواجز لا حدود لها تفرقنا .. سدود فولاذية .. متاريس صخرية" . جلست على إحدى الأرائك الرخامية المنتشرة على كورنيش النيل .. جلست بجوارها ، تفصل بيننا مسافة قصيرة .. دنت بجسدها مني .. كان الهدوء يلف المكان .. راحت تسترق النظر إليّ بحنان غريب .. عطرها يدغدغ أنفي .. يتغلغل في رئتي يثير فيّ أشجانا كثيرة .. نزيف من الخواطر والأفكار يغمر إحساسي .. "عيناك يا نوال زورق لا مرفأ له .. إنك تحاصرين نفسك بي .. تلهبين مشاعري بسياط تلك المشاعر .. بيننا أسنة ورماح كثيرة .. بيننا ليل .. بيننا حلم ومستحيل .. بيننا أميرة التي تعشش في القلب، هي عنيدة مثلي.. فقيرة مثلي .. وقصيرة أيضا .. لكنني أعشق عنادها وفقرها وقصرها .. هي شمس فوق الشمس .. حرف فوق الحرف .. يتمرد ويغرد . يصنع في المجد الآتي من وهج

الشمس .. هي تعلم أني أكره عهر القس الفاسق ، وزيف الشيخ المدعي الأحمق ، وفساد الحسناوات .. هي تعلم أن الشوق الآن يدنيني منها .. ويدنيها مني .. هي تعرف كل هذا وأنت لا تعرفينه يا نوال .

صوت المزمار يعلو .. الراقصة العرق يتفصد من صدرها وفخذيها ، ورغم ذلك تمارس عملها بنشاط يشهد له الحاضرون .

نظرت إلى باب "الشيراتون" الرجل الذي أنتظره لم يأت بعد .. ترى هل تاه في الزحام الكثيف .. لا إنه لا يتوه ..

الذكرى تتوهج الآن ، توهج الفحم في المدفأة .. وقفنا أمام النيل .. كان يومها رائعا وبديعا .. أشارت نوال إلى مياهه وقالت:

– انظر صورتك لا تهتز على صفحة الماء .

تذكرت ثباتي.. جرأتي .. التصقت نوال بي وأنا سابح في نهر أفكاري .. تاهت الكلمات ساعتها بين شفتيها .. تأملت ملامحي بتأن .. التصقت بي أكثر .. دنت بوجهها مني .. دنت بشفتيها .. كانت تشعر بنشوة غريبة وكبيرة .. ملامحها كانت تفصح بهذا ، نعم أحسست بصدرها الطري ينغرس في جسدي .. وعلى شفتيها كانت تربض ابتسامة واثقة .. لم أقف في مواجهتها .. لم أعدل من وقفتي .. كان جسمي مرتخيا تماما .. سألت نفسي :

– هل يجب أن ...

تحاشيت النظر إلى عينيها .. أهو إحساس يصاحب شعور الإنسان بالخجل !! لكن .. لماذا أخجل ؟ ومواقف شبيهة بهذا الموقف قد مرت عليّ .. لكن في هذه اللحظة – حقيقة – تشابكت خطوط كثيرة أمام عيني .. غمرت المساحات الألوان .. صوت هز أركاني "لا .. أيها العاشق القروي.. هناك أميرة .. ربما في بيروت أو دمشق أو بغداد أو باريس أو نيويورك " .. طمأنت نفسي "المهم أنه ما زال موجودا في هذا العالم".

أخرجت الدعوة التي في جيبي .. ابتسمت ابتسامة ساخرة . بلهاء .. لمحتني إحدى صديقاتي– منذ الزمان القديم – أقبلت نحوي مفترة الثغر ..

قالت :

– بصراحة لم أكن أتوقع حضورك ، لمشاركة "نوال" حفل زفافها .

– أنا لم آت لذلك .. جئت لأن لدي موعدا مع صديق .. وحتى الآن لم يحضر .

جلست بجواري .. بدأت تجاذبني الحديث ..

– يقولون : إن فستان زفاف "نوال" ثمنه عشرة آلاف دولار .. هل تصدق هذا ؟

داخ ذهني من الرقم الذي قالته .. قلت وأنا ابتسم :

" – هذا زمان يعرف كيف يدوس الأزهار .. إنكم تضيعونني في مدينتكم بأرقامكم تلك " ..

قالت صديقتي وهي تتطلع إلى ضوضاء وجلبة تدنوا رويدا رويدا :

– هيا يا صديقي نستمتع بمشاهدتها بجوارعريسها .

منعت نفسي من القيام .. في حاجة إلى مواني‌ء كثيرة يرسو عليها عمري .. ترى هل كل مرة أبحث فيها عن الميناء سأجده ؟ وهل ستكونين ميناء حقيقيا لعمري ؟!

أنت لي .. كل أشيائي تنطلق الآن منك .. ياليت كل أشيائك تنطلق الآن مني .. مهما تباعدنا .. أنت لي .. وأنا لك ..

ضجيج زفة العروس أغار على صالة "الشيراتون" .. التف الكثير من الأجانب حولها .. قمت من جلستي سرت ببطء .. هل تصدقين أنك كنت معي .. يدك في يدي ؟!!

نعم .. هي بعينيها الواسعتين الخضراوين ، وشفتيها القرمزيتين، وشعرها الأصفر الطويل .. رباه .. تقفز إلى ذاكرتي ذكرى حدثت في يوم من الأيام .. لابد أن أجمح جماح ذاكرتي .. تسير "نوال" بجوار عريسها الذي يشبه برميلا من براميل البترول .. ما دام قد دفع عشرة آلاف دولار في فستان فهو أغلى من برميل بترول .. ها هي بجواره تنتزع الابتسام .. لدي رغبة هادرة في أن أصرخ في

وجهها .. أصارحها أن أحمر الشفاه الذي لونت به شفتيها لا يناسب بشرتها ، لكني ذبحت رغبتي و .. التزمت الصمت .

التذكارات لها لفح قاس .. تجعل الدم يصعد إلى رأسي ويفور .. عندما أوقفت سيارتها ، نزلنا منها .. سرنا متجاورين على شاطيء النيل .. لم أتكلم ، لأني كنت أتهيأ لأن تدلي باعتراف أو سؤال جريء ..

قالت بصوت خفيض :

– ترى هل بعد عشر سنوات ستذكرني ؟

أجبتها : بكل تأكيد ..

المنتظرة ، بأحلامها الحلوة .. لها وشم في القلب .. لها دفء في نبضك .. تعرف الحب كما تعرفه الطيور .. السر بداخلها يكبر ، فدعه بداخلك يكبر .. قاوم العطش .. فأنت نبي "ضحكت في سري" أومأت "نوال" برأسها وفي عينيها عشرات الأسئلة الخرساء .. تورد خداها .. ابتعدت عني .. وافترقنا .. تعلقت عيناي بمصباح الشارع الذي تتطاير حوله حشرات بشعة ، يقهرها الضوء ، فتسقط على الأسفلت .. متيبسة سوداء .

لابد أن يأتي الرجل .. إنه سيهديني .. الطرق أمامي تشعبت .. أحيانا أشعر أنني ضعيف .. في حاجة إلى سند .. آه يا سيدي هل تعلم أن للانتظار مرارة الصبار .. مازلت أفحص الطريق .. أنظر

للأرض .. أراها غير ممهدة أمامي .. أعاني الفجيعة في أشياء كثيرة .. الطريق بدا موحشا .. الحلم طال انتظار ثماره .. أفحص نفسي .. بداخلي تموجات .. ثورات .. هل كنت مجنونا حين رسمت الخرائط حددت المعالم .

آه لو تعلم أيها الرجل !!

مخنوق أنا مثل مئات الأشياء .. أنزوي .. أجتر ألمي .. أحيا قلقا وأرقا في انزعاج متصل .. أعد الحسابات والاحتمالات عن ما يمكن أن تفرخ عنه القوابل .. الفرعون يرصد عساكره .. وهب المال لمن يرشد عني أو يدلي بمعلومات .. أي مواطن من مواطني دولته يشي باسمي أو عنواني ، له خير كثير .. سبق أن سجنت .. اضطهدت بلا سبب .. التيار ضدي .. والإله دائما يمنحني رحمته .. كبرت في أحضان التحدي .

انتبهت على صوت يناديني .. التفت ناحية الصوت .. تقدم نحوي أحد موظفي "الشيراتون" بأدب جم وقال :

– لقد حضر رجل يقول : إنه غريب وترك لك هذه الرسالة .

تناولت الرسالة بفضول ولهفة .. فضضتها بسرعة .. وجدت مكتوبا طيها:

(صديقي : أخرج بقاربك الصغير إلى الشمس . وخذ معك كتاب الحق ولا تنزعج لعدم مقابلتي لك ، فأنا معك دائما وأنت لا تشعر) .

سبحان الله ..

إذن ما حدث ليس مجرد حلم .. تلك الرسالة التي بين يدي .. لقد هزتني كلمات الرجل بعنف .. لا أخفي عليك أن إحساسا ما .. بالفرح تسلل إلى كياني .

في الليل .. دائما أسير وحدي .. السير لذة مشتهاة دائما في نفسي أجد راحة لا تتخيل وأنا أسير مع نفسي.. أحدثها .. تحدثني .. أضاحكها .. تضاحكني .. تحزن .. أواسيها .. لا أخفي شيئا عنها . بعض الناس يخفون عن أنفسهم أشياءً كثيرة .. هامة وتافهة في حرص شديد .. يرتدون أربطة العنق يرسمون خطاهم .. يرسمون على شفاهم البسمة والتسامح وهم في الحقيقة غير ذلك !!

أشعر أنني لو لم أخرج كل ليلة في الليل وأشق دياجره ، ستكون رحلة الحياة أكبر من أن أحتملها.

رفيف أجنحتك المتناغم يؤنس من وحشة الصمت .. تفكيري الليلة محوره أنت .. صورتك تأتي إليَّ .. صوتك ينساب في أذني وأنا .. أسير مع ليل حزين .. أنت معي .. في النهار تسكنين في سلوكي . وفي الليل تجيئين وتريحين وجهك الجذاب على دفء ذراعي .. أتلمس فيك زمانا ومكانا مجهولين ، أحن إليهما ولا أعرفهما .. لن أتركك تدورين في مدارات تسلبك الفرح ، والإنسان بلا فرح ورد مخنوق !!

– هل مازلت تخبئينني في صدرك ؟

اسكنيني في نبضك .. رياح الخوف واقفة بالباب .. تلتهم الصدق البكر .

زملينا وتعالي .. نستجمع ما في الجعبة من أحلام .. نتجه صوبها .. نرسم فردوسا .. عشقا مثل الأسطورة .. تعالي نتعاهد ثانية .. ثالثة .. رابعة حتى نهاية عمرينا .

٣ / ١٩٨٩/٢

أشواق

قالت :

أرسل إليك أشواقي ، تلك الأشواق التي أحسدها ، لأنها ستراك وتحتضنك ، فتنظر إليها وتبادلك النظر ناهلة من سحرك ، لذا أتمنى أن أكون بدلا من أشواقي ..

بداخلي طوفان من الشجن ، ربما مصدره خوفي من فقدك .. لم تكتب إليّ منذ زمن بعيد .. لماذا ؟ هل انشغلت عني .. أم ضللت الطريق إليَّ .. أنت تعرف خير معرفة أنك تلازمني ، تسكن نبض عروقي ، تستوطن بداخلي بكل ما فيك .. أسمع صوتك من عالمك ، قويا .. جسورا يكشف الزيف ، يعري الدجالين ويكشف شعوذتهم ، صوتك محاصر .. أعلم .. تساؤلك الجريء هو قضية حياتك ، ويزداد نباحهم في الليل ، أعلم أنك لا تخاف الكلاب ولا تخاف الليل !! .. صوتك أسمعه بإحساسي الذي لا يكذب .. في عالمي الذي لا تعرفه أصبحت أدافع عنك جهرا.. في اشتياق.. أنا لحديثك .. بي رغبة في أن أحملك وأطير بك .. أحميك من عقبان

الـصحارى والغابـات وأتـرك شـعري ينـام علـى كتفيـك .. تعـصرني ذراعاك، فأغفو في رحاب السكينة .. حلمت بك البارحة حلما غريبا .. فـي الحلـم حـدث صـدام بـين قطـارين واشـتعل الحريـق فيهمـا .. كنت أهرول .. ذاهلة من كل ما يحدث ، أفتش في كل الوجوه عنك .. النـاس حـولي ينظـرون إليَّ بدهـشة .. أيتعجبـون منـي وأنـا أبحـث عنـك !! شـعرت أنـي مخنوقـة فـي حاجـة إلـى صـدرك ليحمينـي مـن نظراتهم الآثمـة .. لـست أدري بعـدها مـاذا حـدث ؟ لأن الفجـر كـان قـد تـسلل إلـى حجرتي معلنـا انتـصار النـور .. دعنـي أسـألك ، لأنـي أسأل نفسي دائما هذا السؤال كثيرا :

– لماذا تفرض علينا الأيام ما لا نحبه ؟ أسير في نفس الطريق الذي كنا نسير فيه .. أتذكره ؟!!

أسـير وحـدي .. عـروس البحـر تـسألني عنـك ، أتـذكر صـورنا الفوتوغرافيـة معهـا .. أنـا لا أغـار منهـا كمـا تظـن ، لكنـي أغـار مـن كـل امرأة تنظر إليها باشتهاء .. أنانية أنا في حبك ، فاعذرني وسـامحني ! البحـر يـسأل عنـك وضـحى تـسأل عنـك وتقـول : إنـك غبـت كثيـراً وكثيراً ..

كـل شـيء يـذكرني بـك أيهـا القاصـي .. الـداني .. لمـاذا قلـت أنك لا تريـد أن تناقـشني ؟! .. ألـم أقـل لـك أنـك تـضع نهايـة لعلاقتنـا قبـل توحـدنا ، فلـم تـصدقني وهجـرت الكتابـة لـي .. إن مـا يـسيطر عليـك هـو النهايـة التـي وضـعتها لقـصتنا وتريـد أن أشـترك معـك فـي

نسجها ، لكني لن أفعل .. أرأيت إلى أي حد أتمسك بك ، رغم أنك تتصيد الفرص للتخلص مني .. لا تؤاخذني على اندفاعي ، فالحب يشفع لي .

قال :

غبت كثيرا .. لا أخفي عليك أنا في حاجة لسماع صوتك ، فالليل البهيم يجثم على صدري لم يبزغ الفجر الجديد كما وعدتني ولم تنقر العصافير شبابيك روحي ! يا من جميع ألوان الدنيا في عينيها ، وحنان القديسين في صدرها ، ورحمة الأنبياء تلهج بين شفتيها .. أتسألين عن أخباري اسألي نفسك .. إذا كنت سعيدة فأنا سعيد وإن كنت حزينة ، فأنا حزين ، لا أستطيع التراجع عن حبي لك وهذا اعتراف كبير وخطير مني ، فافرحي .. قدر أن أندفع إليك .. وقدر أن تكوني محبوبتي مشاعري نحوك هي مشاعري تسجنني ، كما يعرف السجين برقمه . أعرف بوحدتي الروحية وعدد الذين يكيدون لي .. لم أستطع أن أكون واحدا منهم ، لم أقلدهم أو أسير في تيارهم .. لم أتلون ، لي وجه واحد تعلمينه وتعرفين قسماته !

إنهم كثيرون.. ترى هل كنت مجنونا حين وقفت في وجههم جميعا، قال صديقي "السماء وحدها تملك الحق في التغيير" ونحن ألسنا وسيلة للتغيير ؟! الذبابة هي التي تندس داخل المنخر ، فيعطس ، فتطرد .

ويزداد نباحهم في الليل .. ملامحهم دائما نضرة في ذاكرتي أحببت ملامحك الدقيقة ، أحببت وجهك الطفولي الذي ينادي ، فألبي النداء ! إنني أعيش فيك .. في كل يوم ، أراك أعمق وأجمل ، غرفتي الصغيرة تتسع عندما تزورين فكري ، وإذا ما رحلت يمزقني الخوف .. الشك .. اليأس ، كبرت في نفسي ، حتى صرت أهلي وخلاني ووطني وعنواني .

الليلة .. ينتابني إحساس لا أدري كنهه ، إنني في حاجة للبكاء على صدرك .. خبريني بربك ماذا يعني البكاء؟! ضميني إلى صدرك وطهريني ، لا تخشي عتابا أو ملاما من أحد. ألم أقل لك انني أطلعك على ضعفي واحتياجي لمعونتك ، الفكر ارتبك ، والسبل تشابكت أمامي ، فكوني معي ولا تخذليني .. أنت لم تكوني لي شيئا ، وأنا لم أكن لك شيئا ، لكن المبدأ جمعنا ، فصار كل منا للآخر كل العالم.

لابد أن نلتقي.. فتهطل الأمطار وتروي حدائق روحينا وتزهر الورود، وتسقسق العصافير .

البحث عن شيء ضائع

-١-

عزمت أن أحدثها مهما كان الثمن .. كفاني صمتا حتى الآن .. بعد الظهر .. راقبتها .. كانت تسير مع صويحباتها ، في الميدان الكبير تفرقوا .. قلبي يخفق فرحا – خوفا لست أدري ، كل ما أدريه أنني لابد أن أحدثها .. كنت جريئا .. كل ما أتمناه رغم هذه الجرأة أن تكف العيون عن مراقبتنا ومطاردتنا .. في إحدى الطرقات اقتربت منها .. سمعت صدى أقدامي ، لم تلتفت خلفها . عرفت بغريزة الأنثى أنني أود حديثها .. وفجأة في شارع جانبي دخلت وسارت . خجلت من نفسي أن أتبعها .. في الشارع الضيق وقفت على ناصيته والأسئلة والاحتمالات بداخلي تغلي .. سألت نفسي لماذا هربت مني.. ؟!

- ٢ -

في المساء كنت أسير على ضفة النيل .. حائرا .. وفي نفس الشارع الضيق الذي هربت مني فيه .. سرت فيه .. ربما أبحث عن إجابة لسؤال جاثم فوق صدري !

خرجت من الشارع الضيق .. سرت مرة أخرى على النيل أرهقني التعب جلست على صخرة كبيرة سمعت همهمة في الظلام يبدو أنهما عاشقان ..

– اني أحبك ..

– أنا لا أصدق !!

– كيف أثبت لك هذا ؟!

– لو اكتشف أبي علاقتنا لقتلني ..

تنبها إلى وجودي .. صمتا .. قمت من جلستي وزاد رصيد الأسئلة في نفسي سؤالا جديدا .. لماذا الأشياء الغالية أصبحت رخيصة في زماننا؟!

- ٣ -

في الصباح .. استيقظت مبكرا . لابد أن أحدثها ، أعرف سبب هروبها وضعت لنفسي خطة .. مادامت قد رأتني وأنا أسير خلفها فلماذا لا أقابلها وجها لوجه ..؟ بدلا من السير وراءها ! وإذا قابلتها في نفس الشارع وجها لوجه أظنها لا تستطيع الهروب .

وقفت أنتظرها .. نسائم الصباح الباردة تصفعني . صفحة السماء ملبدة بالغيوم .. وجاءت اللحظة التي طال انتظارها .. رأيتها مقبلة مبتسمة في أول الشارع .. غلبت خوفي وخجلي وارتباكي .. لم يبق بينها وبيني سوى أمتار قليلة .. نظرت إليَّ .. ابتسمت

ابتسامة لم أفهم معناها .. وحدث ما لم أحسب له حسابا عندما اقتربنا وكدت أن أحدثها فرقت بيننا حفرة كبيرة .. فمضى كل منا إلى طريق مختلف ..

- ٤ -

اللقاء دائما يتعذر .. وكأنه أصبح كالمستحيل ، الأمل بنفسي جذوته بدأت تخبو .. أيكون قدرا أن لا نلتقي؟ ليتك تسمعين خفقات قلبي البكر الأخضر .. لماذا ؟

العشق محكوم عليه بالسجن داخل قلبي ..

ربما تكون خائفة من لحظة مصارحة أو ربما تخشى العيون الوقحة التي تتجسس علينا وتريد أن تكشف خبايا النفوس !!

-٥-

وفي غفلة من الناس ومن عيون الرقباء هيأ لنا القدر اللقاء .. لحقت بها .. حاولت أن تتساوى خطواتنا أحسست بقلبها البكر يخفق ربما خوفا أو حياءً أو .. أو .. هناك أشياء كثيرة لا أعلمها وبجرأة عاشق تحدى كل شيء من أجل أن يسمع صوت المحبوب سألتها :

– كيف حالك ..؟!

ابتسمت بخجل وعضت على شفتيها . قالت بصوت ملائكي..

– الحمد لله ..

– هل نحن متخاصمين حقا .. ؟ !!

أجابت وقد استجمعت بعض شجاعتها :

– لا .. إننا لسنا متخاصمين ..

– قولي لي شيئا !!

رمقتني بنظرة كلها تعجب ..

– أي شيء تقصد .. أنا لست حكيمة !

– أعلم ذلك .. فلتكوني حكيمتي إن رفضك الناس حكيمة ولتكوني أميرتي إن خلعوك من الإمارة .. ما رأيك في أن نتوحد نصير جسدا واحدا وروحا واحدة !!

صمتت ولم تجب وبعد برهة قالت :

– ذاك أمر صعب .. يجب أن أتركك الآن وأسير في طريق غير طريقك هم يودون ذلك ..

– وأنا .. أنا أريدك أنت .. أريد أن نتوحد .. ألا ترغبين في ذلك؟!

اغرورقت عيناها بالدموع ووسط غابة الألم ابتسمت بصعوبة وقالت :

– صدقني سيأتي اليوم الذي نتوحد فيه .. تذكر هذا .

أسرعت خطواتها .. ابتعدت عني وأنا واقف مكاني لا أتحرك .. ورويدا رويدا .. توارت عن عيني..

وداعـا .. !!

.. عفوا يـا صـديقي .. لا أسـتطيع أن أشـفع لـك عنـد أبـي .. كيف أشفع لك وقد أجمعت الأسرة على ضرورة التخلص منك ، لا تعاتبني .. أنت الذي جنيت على نفسك بجرائمك التي لا يغفر لها ، وجدتك في الشارع منزويا في ركن مظلم ، كنت مخلوقا صغيرا ، مغمض العينين مرتعش الأطراف .. حملتك برفق إلى دارنا .. عاتبتني أمي ولامتني كثيرا ، لأني أحضرتك وأصررت على بقائك في منزلنا .. أبي قبل وجودك في المنزل من أجل إرضائي .. لكنه ، كان ساخطا عليك .. ينفر منك كأن بينك وبينه ثأرا قديما.. حملتك بين يدي وصعدت بك إلى السطح .. لم أقيدك بقيود، كنت أحب أن تتنسم نسيم الحرية أحضرت لك السمك الذي تشتهيه ، عندما ذهبت إلى المدرسة حدثت زملائي محمود وعلي وابراهيم عنك .. كذبت عليهم .. لم أخبرهم بأني وجدتك في الشارع المظلم ، قلت لهم انك من سلالة طيبة وأنك وديع مخلص ، شوقتهم إلى رؤيتك .. أصروا على المجيء لدارنا ورؤيتك ، صعدت بهم إلى السطح ..

سعدوا برؤيتك ، ورؤية ذيلك المكسور المنفوش وعينيك اللامعتين .. مددت يدي ، سلمت عليك داعبك صديقي محمود وقال بأنك : قط رومي أصيل .

وعرض عليَّ صديقي ابراهيم أن يشتريك مني ولكني رفضت .. خرج أصدقائي من عندي ، يحسدونني عليك ومرت أيام .. سعدت أمي بك .. كانت تربت على ظهرك بحنان ، وتحضر لك طبقا من اللبن كل صباح ..

قالت لي : إن القطط تأكل الفئران ، عندما لاحظ أبي اهتمامي الكبير بك واهتمام أمي بك .

قال لنا : لم يعد وراءنا غير هذا القط !!

كنت متكبرا وكنت أحب كبرياءك ، تلاشت نظرة الانكسار التي لاحظتها في عينيك يوم وجدتك وحلت محل تلك النظرة في عينيك الخضراوين نظرة كلها ثقة أو ربما غرور ..

ذات يوم .. كانت أمي قد أعدت في الغداء لنا سمكا مشويا، وانتظرت أبي حتى حضوره من عمله ولما قدم قامت أمي بتجهيز الغداء .. بحثت عن السمك المشوي لم تجد منه سوى بقايا .. ورأت .. بقايا منه في فمك .. ولما رأيتها هربت نحو السطح تضايقت أمي .. قالت لأبي .. ثار أبي ثورة عارمة وقال لي : لابد أن يطرد هذا القط من بيتنا ..

وجدتك جالسا فوق السطح بكبرياء – لماذا فعلت هذا .. لماذا ؟ ألم أكن أطعمك رءوس الأسماك وعظامها كلها وأفضلك على الدجاج والبط .. فلماذا فعلت جريمتك ؟! .. شفع لك عند أمي وأبي بكائي .. فوافق أبي على بقائك بشرط إذا فعلت أي شيء .. ستطرد .. فأذعنت لأمرهم ..

وبدأ الجيران يشتكون منك ويتهمونك بأنك تسرق السمك وتعبث بالأواني بحثا عنه .. لاحظت أنك أصبحت شرس النظرات ، تضخمت بطنك وبدأت تعف عن اصطياد الفئران ومطاردتها .. وكانت جريمتك الكبرى التي لا تغتفر أبدا .. يوم دخلت حجرة الفرن فوق السطح وأكلت الأرانب الخمسة الصغيرة .. كلها لحم ، تحينت فرصة خروج الأرنبة الأم وتسللت إلى حجرة الفرن وافترستهم كالذئب .. ساقني القدر في هذه اللحظة مصادفة ، ورأيتك وأنت خارج من حجرة الفرن وفي فمك بقايا أرنب صغير .. ذهلت من تلك المفاجأة .. لم أجر وراءك لم أطاردك .. أجل .. لقد أصبحت وحشا حقيقيا لا أمان لك .. قرر أبي التخلص منك ووضعت أمي خطة للقبض عليك .. وضعت لك سمكتين داخل مصيدة .. ووقعت في الفخ يا وحش .. ودخلت المصيدة .. رأيتك وأنت تدور حول نفسك في المصيدة .. نظراتك ذاهلة .. فكما سرقت السمك دون وازع وكما أكلت الأرانب الصغيرة اللحم بكل شراهة ، دخلت

المصيدة ، تلتهم السمكتين ، ولم تكن تعلم أنهما آخر طعام يصل إلى جوفك ..

لكني حزين .. حزين ..

لست حزينا على فقدك بقدر حزني على خيانتك والآن .. أنت بين يدي .. أسير بك وأنت داخل المصيدة ، لماذا تنظر اليّ أتتوقع مني شفقة أو عطفا ؟ وكيف أعطف عليك بعد كل ما فعلته .. لا تعاتبني ، انتظر مصيرك المؤلم سأقذفك الآن في الماء وسط البحيرة وستهوي بك المصيدة ، سجنك الصغير إلى القاع إلى قرار سحيق .. عفوا يا .. لا تعاتبني ..

١٩٨٧/٢ /٢

محاولة

المسافات التي تفصلنا عن بعض ليست كبيرة ، لكننا دون وعي منا – أحيانا – نتوهم أن المسافات بيننا كبيرة جدا .. لا تحاولي أن تضعي الحواجز بيننا ، لأني أسعى لهدم كل الحواجز التي تفصل بيننا .. غريبان نحن في نظر الناس ، ولسنا غريبين في نظر أنفسنا ، امنحيني ما في نفسك من قوة وإيمان لأواصل المسير .. لاتحاولي أن تصمتي ! فالصمت لغة – بعد الآن – لن أفهمها .. !!

صفو الجدول العذب كان لقاؤنا .. أطمع أن تمنحيني دائما الصفو، وياله من منح .. التقينا في محطة من محطات العمر ، ربما تمنى أحدنا أن يلتقي بالآخر فيها ، أو ربما تمنى كلانا ذلك ! لقد منحنا القدر تلك الفرصة، فحاولي أن تفهمي لغتي أو ارحلي !! لا تنزعجي .. فماذا يعني رحيلك..؟ سؤال حاولت أن أجيب عليه ، لكني كنت أهرب منه ، لأنه أكبر من تصوري !!

دائما أحزن عندما أبصر لون الشفق الغارب كئيبا ! فكيف أتخيلك شفقا غاربا ؟! كثيراً من الأحزان منحتها لي المحطات الكثيرة في حياتي . ومازال القطار يواصل رحلته ناهبا الزمن .. أمر على محطات أكرهها ، ومحطات ترتاح نفسي لها ، ومحطات لا أشعر تجاهها بشعور محدد ، لا أدري لماذا .. لا أحاول أن أتمرد بقدر محاولتي التعبير عن نفسي.

– لا أستطيع أن أكتب إلا ذاتي.

أرجوك لا تضعي نفسك موضع التحدي ، انضمي ، إليَّ كوني حصنا من الحب والأمنيات، لا أحب التحدي لكن الأقدار تضعني كثيرا في موضع المتحدي ، فأدخل تلك الدائرة دون رفض أو تمرد .. أتدرين ماذا يعني أن نجبر على التحدي ؟!

سأهبط من القطار في أول محطة قادمة لأني أعرف أنك تنتظرين مجهولا في شخصي ، لا شك أنك اشتقت للقاء بهذا المجهول !!

المحطة التي سأهبط فيها لألقاك تدنو .. رويدا ، رويدا .. حاولي أن تجعلي مشاعرك تنطلق على سجيتها ، أرجوك لا تعلني التحدي ، لأنه ليس في صالح كلينا .. دون تصافح .. تعانقت نظراتنا ، ابتسمنا ، منذ آلاف السنين التقينا .. هل تذكرين ؟ صمتنا .. شرخت حائط الصمت ، سألتني :

– أين ذهب الـ ... (قاطعتك)

– إنه ينتظرني في مكان ما .. حدده لي ..

– هل ستقابله ؟

صمت .. أمعنت النظر في اللاشيء ، بعد برهة أجبت

– لا أدري ..

– .....

– إنني أحاول أن أقترب منك أكثر وأكثر ، وأظن – وهذا مجرد ظن – إن محاولاتي حتى الآن نصيبها النجاح " ابتسمت " منذ زمان كان غروري أضخم حجما من الآن ، كان عملاقا .. عملاقا .. أما الآن فأظن نفسي بدأت تقنع بحجمها الحقيقي .

فاجأتني بسؤال لم أكن أتوقعه :

– وهل تظن أنك الآن لست مغرورا ؟

– لا .. لا أظن هذا ..

ضحكت بصوت مرتفع أو ربما خيل إليّ هذا .

– في المرة الأولى لما التقينا ..

– من ألف عام ..!

– نعم .. طلبت منك الصدق.. وقلت لك : " تعالي نجعله دستور علاقتنا " وأظن أن الصدق كان ريمتي في هذا العالم .." صمتت ولم تجب " .. واصلت حديثي ..

– لا تنزعجي .. كنت صادقا معك ومازلت كذلك ! لا تتصور كم لاقيت من المتاعب والأهوال في سبيل ذلك ؟

– لست أدري ماذا تعني ؟

– يالك من غامض .. لست أفهم ما تعنيه ، إني صادقة جدا معك و.....

– لا تدعي ثقتك في ، أنت لم تثقي فيَّ لحظة واحدة ، وللأسف لم تقدري قيمة صدقي معك ومع الناس .. فأنا وحدي الذي أعاني و....."صمت" قالت :

– بصراحة ، لم أسأل أحدا عنك وأخبرني بما يسر ، سألت نفسي "ترى هل الناس كلهم على باطل وأنا التي على حق ؟ " تحيرت كثيرا .. أجبني هل الناس على باطل وأنت على حق .. أصدق من .. أصدقك أم أصدق الناس أم أصدق نفسي ؟

– صدقي الجميع ..!

انبهرت من تعليقي على حيرتها، لم تتوقع هذا التعليق مني .. سألتني: كيف .. ؟

– " إذا اختلفت الآراء في رجل واحد ضاعت الحقيقة " .. حاولي أن تصلي للحقيقة بنفسك ..

" كنت أعلم ما يدور بذهنها ، إنها لكي تعرف الحقيقة ، لابد أن تدفع ثمن هذه .. وربما يكون ثمنها باهظا ! " .

– هل ما يقوله الناس عنك حقيقي ؟!

– ليس كل ما يقولونه حقيقي ..

– بعض ما يقولونه صدق ؟!

– ربما أنا لا أستطيع أن أنكر هذا .

مطت شفتيها وصمتت .. سألتها :

– كيف تثقين فيَّ مستقبلا ؟

ابتسمت ابتسامة لاذعة وقالت :

– أحسب أن هذه قضيتك !

– بل قضيتك أنت !

– اعطيني ثقتك وتأكدي مـ ... " قاطعتني " :

– خائفة !! " قالتها بصوت خافت "

– ممن ؟ " صمتت قليلا ثم واصلت حديثها " :

– .. من الناس !

" قلت بثقة " :

– أو ربما من نفسك !

– ربما ..

– وخائفة مني أيضا ؟

– لا أخفي عليك استنتاجك حقيقي !

– سافرت كثيرا وقد تعبت الآن من السفر ، قد هدتني متاعبه .. الآن سيرحل كل منا من هذه المحطة إلى محطات أخرى .

– هل ستكتبين لي ؟

أجابت بجفاء لم أكن أتصوره .. جفاء أمسك برأسي بعنف ورطمها بصخرة بارزة النتوءات .. فنزفت مشاعري .. لملمت شتات جراحي .. وسألتها : لماذا ؟

– لا.. إن الناس .. وأنت " تلعثمت " ، أدركت أنها لا تجد إجابة لسؤالي ، لأنه لا توجد إجابة منطقية سوى أنها لا تثق بي .. وهذا معناه أنها لا تصدقني ، هذا للأسف " قالت بارتباك " :

– تستطيع أن تكتب لي ..

" رددت عليها بسخرية " :

– ولا تردين على رسائلي !!

– نعم ..

– وأكون مجرد شمعة تحترق .. إنك أشبه بمن يرى حريقا هائلا ويرقبه بمشاعر باردة وهو لا يتحرك من مكانه .. ولا تهتز مشاعره لمنظر الحريق .

رمقتني بنظرة لم أفهم معناها .

– إن تلك المحطة التي جمعتنا هي عالم لا نفهمه .. لكننا نشعر بانتمائنا إليه ، فلماذا نشعر بالإغتراب؟

إنني أتحاشي أن أدخل معك في نقاش نختلف فيه ، لكنك رغم هذا تصرين على الخلاف ، في إطار فهمك للأمور ، ظنا منك أن الرؤية أمامك واضحة .. ومادامت واضحة لماذا قد وصلنا إلى مفترق الطرق .. ؟! تعودت على الغموض والتحدي والمفاجأة ..

لكن لماذا تتمسكين بذلك الشيء الساذج ؛ وهو عدم إرسالك رسائل لي بعد أن يرحل كل منا .. إنني لا أفهم معنى هذا ؟ لماذا لا تثقين في نفسك ؟ لماذا تريدين العودة من حيث أتيت ؟ لست أدري كيف تعودين لعالم كانت نفسك تدعوك في كل لحظة للهروب منه ! تعالي .. قاتلي الحزن الذي يغتال ذاكرتي ؟ اخلعي الصمت ولا تخجلي ، دعي زهور الأمل تتفتح في فؤادينا .. كيف لا تكتبين لي؟ . لا تتبعي هذه السياسة معي ، فنتيجتها الفراق الأبدي والتشتت في الأرض !

ها هو النهر يثور .. يفيض احتجاجا ..

– خائفة !!

لا تنتظري شجرة الطلح أن تعطي شهدا حلواً .. فلا تزرعي الطلح بيننا ! لا تلبسيني حداد الذكريات ، فأنا لا أشتهيك مترعة بالخوف .. فحاولي أن تقهري جليد الوهم .. إن ما يفصلنا الآن ألف إجابة محاصرة ! إنني لا أخطط لكلامي معك المباغت .. أقف صامتا متدبرا لكل موقف يجمعنا وتقف معي عشرات الأسئلة! بيني وبينك عشرات القصائد الحزينة، وعشرات القصص الغامقة الألوان ، الغامضة . لو التزمت الصمت ستظلين لا تدرين شيئا عن عالمنا . حاولي أن تحتوينا بآلامنا وأفراحنا ، حتى لا تكون كلماتك ناقصة رغم جمالها .. مبتورة رغم صفائها .. انطلقي .. ثرثري .. غني ..

ارقصي .. حاولي أن تجيبي على الأسئلة الكثيرة المبهمة !! لست أدري لماذا ينتابني احساس بفقدك ؟!

– .....

صمتت ، طال صمتها . لملمت أشياءها معلنة الرحيل ، سألت نفسي وأنا أبصرها تنطلق فوق ذرى المجهول .. ترى هل ستكتب لي ؟

١٩٨٨/٩/١١

الحزن يرحل عند المفترق

-١-

الظلام يغشى كل مكان .. أشباح تهرول هنا وهناك .. يكثر الهمس .. الصراخ يعلو ، يشرخ الظلام الدامس .. لا أحد يتجه نحو مصدر الصراخ .. الجميع يندثرون بالخوف ، الأيدي ترتعش .. الأسنان تصطك رعبا ، العيون زائغة ، الأعناق منكسة .. العيون تنظر إلى السماء ، ترقب بزوغ قمر أو حتى نجم صغير ، العيون تنظر إلى السماء أو حتى نجم صغير ، لكن السماء كانت معتمة .. خالية من القمر ، ومن أي نجم ..

-٢-

في صباح اليوم التالي .. قرر حظر التجول في شوارع وطرقات المدينة .

- ٣ -

أهذا يعقل ، المدينة بكل أضوائها وإغرائها ورجالها ونسائها لا تستطيع مقاومة هذا الكائن الغريب ، الذي جاء واحتل أحد أطرافها ، مهددا باحتلال المدينة كلها ، إنه كائن غريب .. غريب .. لا يشبه الإنسان ، ولا الحيوان ولا النبات .. كائن من نوع جديد ، هو كتلة من لون الليل ، عندما جاء غازيا المدينة كان يتحرك في الليل مستترا بسدول الظلام ، والآن بعد أن قويت أنيابه ، يتحرك في الليل والنهار .. ويضاجع نساء المدينة ، كل ليلة يضاجع امرأة – عنوة – آملا أن ينجب طفلا !!

- ٤-

أذلّ الكائن الغريب ، الجبار ، المارد ، أهل المدينة .. رجالا ونساء .. أذل أعتي الرجال ! في عقر دارهم اغتصب من يشتهي من النساء جهرا !! هدم المدارس .. قطع الطرق .. هدم كل شيء جميل..
كيف لمدينة بكل رجالها لا تقوى على طرد هذا الجبار ؟!

-٥ -

النساء مقتن أزواجهن .. قمن من مضاجعهن ، هجرن الأحضان الباردة .. قالت إحدى النسوة لزوجها ..

– لن تمسني حتى أتبين ؟

– تتبيني ماذا ؟

– أتبين رجولتك ..

قالت وهي لم تبك ..

– الرجولة ليست مجرد أن يواقع الرجل المرأة ، فالحيوانات تفعل ذلك !!

– الرجولة شيء آخر ..

- ٦ -

كانت صغيرة لم تتجاوز السادسة عشرة .. جميلة .. جذابة .. تتميز دون سائر فتيات المدينة .. بجدائلها السوداء – في لحظة .. قررت أن ترحل إلى حبيبها . لكن كيف والمارد يحاصر المدينة ؟

قالت ..

– سأقتل المارد ؟

ومضت إلى مصيرها .. طعنت المارد .. جرحته .. تحت وطأة الألم سحقها تحت أقدامه .. وظل يئن ، لكنه لم يمت .

- ٧ -

المارد يئن ويئن .. والخوف في نفوس الناس ينمو وينمو .

-٨-

دبر مجموعة من الشباب محاولة للتخلص من الكائن الجبار .. أحدهم كان يمشي في إحدى الطرقات .. والآخرون مختبئون .. أفزعه المارد ..

– قف ...

– .....

– لماذا تتجول في الطرقات ؟! ألم تعلم بقراري حظر التجول ؟

– إنها بلدتي ويحق لي أن أتجول في طرقاتها في أي وقت أشاء !

ضحك المارد بهستيرية .. بصق الشاب في وجهه .. وفجأة .. التف حول المارد مجموعة الشباب .. قاتلوه .. ولكنه ببأسه ذبحهم .. وسحقهم تحت أقدامه وسال الدم .. الدم .. الدم ..

-٩-

الصمت .. الدموع .. الآهات .. الخوف .. الحزن يرتع في كل مكان.

-١٠-

في صلاة العشاء .. اجتمع الرجال في المسجد .. وقرروا أن يقتلوا الخوف .. تطهروا وصلوا ..

بعد الصلاة .. اجتمعوا .. درسوا لماذا فشلت كل محاولات التخلص من الكائن الغريب .. توصلوا إلى سبب الفشل .. وعزموا على قتل المارد قبل حلول فجر الغد .

-١١-

من البيوت خرج الرجال .. النساء .. الشيوخ .. الأطفال .. قاصدين المارد حاملين في أيديهم كل أسلحتهم البدائية .. العصا .. الحجارة . نظر اليهم المارد ساخرا منهم ومن أسلحتهم ..

أيريدون قتلي .. سأسحقهم تحت أقدامي وسأمتع عيني برؤيتهم يتساقطون في جحيمي كما يتساقط الفراش حول النار !

-١٢-

انتصب واقفا .. قويا .. شامخا . سمع صوتا . لم يتبينه أول الأمر .. لكنه تبينهم عندما اقتربوا أكثر وأكثر .. إنهم يكبرّون .. الله أكبر .. الله أكبر .. ويرتلون القرآن .. قال في نفسه :

" عجيب أمرهم .. صوتهم هز أعماقي .. كالخنجر يتغلغل في خاصرتي.. هؤلاء ليسوا أهل المدينة ، لم أعهدكم كذلك .. ما بالهم اليوم ! "

-١٣ -

ظهر نجم صغير في السماء الحالكة الظلمة .. منذ زمن كبير لم يظهر..

-١٤-

– بضربة رجل واحد سينتهي الأمر .. ونحرر أنفسنا .. سنغرس في قلب الليل خنجرا قويا .

-١٥ -

اشتبك الناس في قتال مع الكائن الغريب ، متعطش للدماء .. يشرب منها بنهم .. لكنه مذعور من إصرار مقاتليه .. إنه يقاوم لكنه أمام خذلانه قرر جمع شتاته وبقاياه عازما الرحيل ..

١٩٨٨/٣/٢٤

حدث في المقابر

عندما تجاوزت الساعة منتصف الليل حملته بين يدي واتجهت به نحو القبور ، القرية كان يغشاها الوسن ، لم أكن أتمنى أن يراني أحد وأنا أدفنه ، أعلم أنه لن يحاسبني أحد على قتله ، فالناس جميعا يعرفون حقيقته الدنسة .

المقابر بين الحقول ، والمسافة بين القرية والمقابر مسافة ليست بالقصيرة ، قلت له كثيرا :

– اذهب بعيدا عني وأرحل عن حياتي ، سأقول لك – إذا رحلت – كما يقول المحبون وداعا .

لكنه كان يسخر مني مقهقها ، فتبدو أنيابه الزرقاء كريهة .. لم أر في حياتي وجها بليدا كوجهه ، ولا إحساسا ميتا كإحساسه .. يتذرع دائما بالصمت أمام انفعالاتي ، كانت نظراته تقول لي : لن تستطيع أن تتخلص مني .. ولن أرحل عن حياتك .

فكرت كثيرا في التخلص منه ، لكن أفكاري كانت دائما لا تتجاوز نطاق فكري ، لا أستطيع أن أنكر أنني حاولت قتله أكثر من

مرة ، لكن شجاعتي كانت تخونني ، فأرجع مهزوما ، أتكور ، أتقوقع داخل سراديب نفسي .. هو الذي حرضني على تطليق "زينب" زوجتي الطيبة ، وأتزوج من "نرجس" الأرملة ، اللعوب ، التي أذاقتني كؤوس العذاب والندم . وهو الذي حرضني على خصام أخي الوحيد وطرده من القرية بعد أن استوليت على نصيبه من أرض أبي ..

الآن بعد قتله ، سترجع "زينب" .. ويرجع أخي إلى أرضه .

"وداعا .. يا من منحتني القدرة على البطش وفقدان توازن نفسي ، فلم أنعم حتى بالنوم الهاديء .. ليس لي شرف أعز من شرف قتلك .. ها هي يدي مخضبة بدمك ، وأنت تلفظ أنفاسك الأخيرة قلت لي : لقد انتهت رحلتي معك"..

نعم لقد انتهت رحلتك معي .. "

عدلت من وضعه بين يدي ، مضيت مواصلا السير ، أتمنى ألا يراني أحد وأنا أحمله ، لا لشيء ، غير أنني أريد التخلص منه ودفنه بهدوء ، فلو رآه أهل القرية وهو جثة هامدة ، لقطعوه قطعا .. قطعا وطحنوه وتركوه للريح تذروه ، وأنا لا أريد أن يحدث هذا ، يكفي أن يظل قبره أمام عيني دائما ، رمزا للظلم الذي ولى والسيطرة التي انتهت ، غير أني ما كدت أقترب من مدخل المقابر حتى ظهر أمامي فجأة رجل يعترض طريقي ، كان يخفي ملامح وجهه خلف نظارة سوداء ، زجاجها سميك ، هيئته تثير الرهبة والريبة ، خمنت أنه

لص ، لكن ماذا سيسرق مني ؟ لقد تركت نقودي في داري ، حتى لا تسقط مني أثناء عملية الدفن .. كل الأشياء تركتها ، لم يبق إلا .. روحي .. أيريد أن يسرقها؟! ابتسم ابتسامة خبيثة ثم قال :

– عنك حدثني .. أيها الرجل الطيب ..

– من هذا الذي حدثك ؟

ابتسم .. لم يجب .. تراجعت للوراء خطوتين ، صرخت فيه:

– ابتعد عن طريقي .. ابتعد وإلا ...

بدا الضيق على ملامح وجهه .. قال :

– فلتسمح لي بمساعدتك في دفنه ..

لم تكن في طريقة تحدثه ذرة صدق واحدة .. ازدادت ريبتي فيه ، قلت له:

– لا مانع عندي ، لكن لي شرطا واحدا .

– ما هو ؟

– أن تخلع نظارتك .

اضطرب ، بدا عليه الفزع ، قال بانفعال :

– لا .. لا لن أفعل .

قلت له وأنا أتقدم للأمام ، متجاهله :

– ابتعد عن طريقي .. ابتعد ..

هرول ورائي .. سبقني .. أشهر مدية في وجهي .. قال :

– يجب أن تعلم أنه باستطاعتي قتلك .. أنت قتلت واحدا من أعز وأكفأ جنودنا .

أشرت برأسي إلى القتيل الذي أحمله وقلت :

– إذن أنت مثله ..

أومأ وهو يبتسم ..

خلع نظارته .. عرفت ملامحه ، إنها نفس ملامح القتيل الذي بين يدي ، وجهه البليد .. عيناه .. انتابتني نوبة خوف .. تمالكت نفسي وتصنعت الابتسام .. قال :

– سأقتلك .. إنك أعزل .

– لن تستطيع قتلي ، المدية التي تحملها ليست سلاحا .

تقدمت إلى الأمام ، تقدم أمامي يعترضني .. صرخ في وجهي:

– سأقتلك ..

لم أهتم .. تقدمت .. صرخ .. علا صراخه .. قلت له بتحد: اقتلني إذن.

كان قرص الشمس الذهبي بدا يرسل جنوده معلنا المجيء .. فقد الرجل ذو النظارة السوداء توازنه ، سقطت المدية من يده ، تماوج .. ترنح .. زغرد قلبي مستبشرا بالنصر .. تركت الجثة التي بين ذراعي على الأرض .. هممت أن أطعنه ، لكنني وجدته يستعيد توازنه وصحوه ويخرج مدية أخرى غير التي سقطت .. دارت بيني

وبينه معركة شرسة ، شعرت بقوة في نفسي لم أشعر بها من قبل .. أخذت أسدد له اللكمات والضربات وهو يئن أنات وحشية .. أخيرا .. خر صريعا ، وقفت أتنفس الصعداء بعد معركة الحياة والموت .. رأيت موكبا من بعيد أخذ يدنو ويدنو ، قادما من القرية ، الناس يصفقون ، النساء تزغرد ، الصبيان ترقص ، وأنا أحاول أن أسترجع تفاصيل معركتي مع الرجل ذي النظارة السوداء .. كان الأفق يبدو صافيا لا تحجبه غيوم ، وضوء الشمس يخترق الضباب ويسحقه .. الحقول نضرة ، أعواد القصب ترقص والسنبلات تغني .. تأملت القتيلين بفخر .. التف أبناء قريتي حولي ، راحوا يقبلونني .. مستبشرين .. سألتهم :

– أكنتم تعلمون بما يدور وأنتم نائمون ؟

أجابوا بصوت رجل واحد ..

– نعم ..

سألتهم بتعجب :

– لماذا لم تشاركوني في المعركة ؟

– .....

غرقوا جميعا في الصمت .

أحزان حارتنا القديمة

منذ زمن لم أكتب إليك ، وهذا يرجع إلى سبب بسيط ، هو أن الكتابة إليك ليست بالسهولة التي تتصورينها أو يتصورها الناس .. الكتابة إليك تحتاج إلى استعداد خاص وإلى قوة في إمساك القلم .. أكتب إليك الآن في هذا المساء بالذات . اعترتني رغبة جامحة وشعور قوي لا يقاوم في أن أكتب إليك .. شعرت أنني في حاجة إليك لأن أبكي وتضميني إلى صدرك تجففين دموعي .. سأحكي لك طرفا عما يحدث في المدينة .. في حارتنا التي رحلت عنها منذ سنين .. حارتنا نفس الحارة .. شوارعها الضيقة ماتزال قذرة ، نهارها أشبه بالليل .. الظلام الدامس يخيم على كل شيء الكلاب ترتع في الطرقات لم تعد تعض اللصوص بل أصبحت تعض الأبرياء من سكان الحي .. صدقيني لم تعد تطارد لصا واحدا .. كل يوم يهرع سكان الحارة فزعين – على صوت طفل أو امرأة أو شيخ قد عضه أحد الكلاب .

هل تذكرين الحاجة "فطومة" التي كانت تجلس في مدخل الحارة، تفترش الأرض وتضع أمامها الصندوق المملوء بالحلوى ، تبيعها للصغار .. قد قلت لي ذات يوم أنك تتفائلين بهذه العجوز .. في منتصف إحدى ليالي شهر رمضان .. تناهى إلى سمعي صراخ وعويل .. هرولت أستطلع الأمر قالوا :

– الحاجة فطومة قتلت وسرق صندوقها .. حققت الشرطة قالوا إن القتل كان بهدف سرقة الصندوق ومازالت الشرطة تبحث عن الجاني .. لا أحد يستطيع أن يتكلم .. للصمت سلطان على النفوس وأي سلطان هذا الذي يلجم النفس عن الإعتراف بالحقيقة .

حامد .. تاجر القماش . هل تذكرينه .. صاحب الفم الأهتم والجسد النحيف الذي كان يرتدي دائما عمامة صفراء وجلبابا بني اللون .. عندما أحدثك عن حامد أعرف أنني أثير لديك الفضول .. كم قلت لي أن هذا الرجل له تصرفات مريبة تثير الشك عندك والتساؤل .. رغم تدينه .. ورغم حرصه على أداء صلاة كل فرض في المسجد .. ورغم أن المسبحة لا تفارق يده .

فجأة .. أصبح "حامد" أغني رجل في حارتنا .. اشترى أكثر من نصف بيوت حارتنا وأجرها إلى أصحابها الأصليين .. تصرف غريب أليس كذلك !!

.. لا أحد يستطيع تعليل هذا التصرف سوى حامد نفسه ، على أي حال أصبح لدى حامد سيارة فارهة .. المدينة كلها

أصبحت تتحدث عنه ومصالحها مرتبطة به .. هذا الذي كنت تشمئزين منه أصبح له هذا الشأن .. يقول سكان حارتنا "سبب ثروة حامد أنه وجد بداخل أحد أتواب القماش كنزا" .

وآخر يقول : " إنه من تجار الليل .." ذات مساء .. وصلتني دعوة لتناول العشاء لدى حامد في منزله لكني رفضت .. باقي سكان حارتنا ذهبوا .. أعلم أنك لو كنت موجودة بيننا لما ذهبت .. بعد رجوع سكان الحارة من حفل تناول العشاء لا حديث لهم إلا عن السجاد المستورد الذي في منزله .. والتحف الأنيقة والستائر والعفش الذي صنع له خصيصا في باريس .. أصبح كل الذين يشككون في مصدر ثروته يمجدونه ويشيدون بكرمه وشهامته "

ذات صباح .. بلغنا أن حامد قد قتل .. سألنا من قتله ؟

قالوا : لا ندري !!

مغفل هذا الذي قتله .. كان يظن أنه بموت حامد تموت أشياء كثيرة .. لكن لم يكن يعلم أن سيظهر على مسرح أحداث حارتنا حامد جديد .. وكان حامد الجديد سعيد ابن صاحب المقهى التي تقع في مدخل حارتنا .. نعم .. هو كما تذكرينه زميلنا في الدراسة الفاشل الذي لم يحصل على أي شهادة دراسية .. سافر إلى إحدى الدول العربية منذ عامين ، وعاد يحمل في جعبته الدولارات والدينارات .. التف حوله سكان الحارة كما فعلوا مع حامد وتزوج سعيد من أجمل فتاة في حارتنا .

المهم .. لعلي أثقلت عليك بما رويته من أشياء تحدث في حارتنا التي كانت حارتك وموطنك يوما ما .. ولكنك قلت لي في رسالتك الأخيرة .. أكتب لي عن كل شيء يحدث في الحارة مهما كان بسيطا أو تافها ..

معذرة .. نسيت أن أقول لك .. ذهبت أصلي في جامع حارتنا فسرق حذائي ومن داخل بيتي سرقت ملابسي .. انني خائف .. خائف أن تسرق مني نفسي .

المخلص (.....)

١٩٨٦/١١/٢٤

الرحيل عن مدن الهزائم

١ – رسالة حب :

كانت روحا شفافة ، مرهفة الاحساس ، رغم أنها لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها ، إلا أنها عاشقة متيمة .. بينما هي جالسة تستذكر دروسها ذات مساء ، قررت بلا أدنى مقدمات أن تكتب إليه .. لا تدري بالضبط ما الذي تود أن تبوح به له ، كل ما تدريه أن بداخلها رغبة لا تقاوم في أن تكتب إليه .. أخرجت من درج مكتبها ورقة وردية اللون كانت تحتفظ بها ، وبخط دقيق جميل ، بدأت تكتب : "لأني أحبك" .. أكتب إليك هذه الرسالة ، إنني أعرفك وتعرفني أنت أكثر من نفسي .. أنت السماء الصافية ، الأفق الذي لا يصل إلى مداه بصري ، أنت رحيق الزهور، تغريد الطيور .. البسمة على كل شفاه ، لا يستطيع عقلي الصغير أن يتخيل جمالك ورغم الصورة الجميلة التي رسمتها لك في خيالي ، إلا أنني أحيانا أخاف منك ولا أتمنى أن ألتقي بك .. أحس أن يوم لقائك سيكون يوما مشهودا .. يخيل إليَّ أنك النار المستعرة والرياح المزمجرة والبراكين

والزلازل المدمرة .. ورغم هذا الشعور المتناقض في نفسي تجاه تخيلك ، إلا أنني في شوق إليك .. نعم في شوق إليك .. قالت لنا المعلمة في المدرسة اليوم : الإنسان عندما يشتاق لرؤية شيء جميل فهو يحبه" .. إذن ، أنا أحبك .. ترى هل تحبني وتبادلني شعوري ؟! إنني عندما أحزن ألجأ إليك ، لأشكو إليك .. وعندما أفرح أشكرك .. أعلم أنك قرأت رسالتي هذه قبل أن أكتبها إليك .. ولكن كتبتها .. لأنني أحب أن أكتب إليك .. لأني أحبك !

العاشقة الصغيرة

(.....)

طوت الرسالة برفق وعناية بالغين ، فتحت درج مكتبها .. أخرجت مظروفا ، عطرت الرسالة من زجاجة عطرها الصغيرة ، وضعتها في المظروف .. كتبت عليه بخط دقيق .. متأن .. أنيق " إلى الله ".

٢- من مذاكرت زوجة تبحث عن ذاتها :

الخميس ١٤ ديسمبر ....

خمس سنوات مرت على زواجي وأنا صامتة .. قنوعة بحياتي معه .. لكنني أشعر أن زوجي رجل منزو .. منعزل عن الواقع الذي نعيشه ، في الصباح يخرج إلى عمله .. بعد الظهر يخرج من عمله يتناول الغداء ويأوي إلى الفراش بعد أن يقرأ ساعة أو ساعتين في

مجلات يحضرها معه وكتب تكدس بها بيتنا حتى أصبحت لا أجد مكانا لها ، يستيقظ من النوم قبيل المغرب .. يصلي المغرب ، ويظل يقرأ القرآن حتى صلاة العشاء .. وبعد العشاء بساعة نأوي إلى فراشنا ، كل يوم على هذا المنوال تدور حياته وحياتي معه .. لا يعرف الطريق إلى المقهى أو النادي أو زيارة الأصدقاء . كان من المتوقع أن يحتل منصبا كبيرا ، لكنه آثر وظيفة متواضعة في إحدى الهيئات برغم أنه يرفض أن يقدم تنازلات على حساب مبادئه .. اني أقدر اعتزازه بنفسه .. كان يسمعني كلمات الحب أتقبلها بنفس راضية وأبادله كلماته بكلمات رقيقة .. لكني لم أعد أبادله الكلمات في الفترة الأخيرة ، لا أدري لماذا ؟

الاثنين ٧ فبراير ...

عندما عاد زوجي من عمله وجدته حزينا مهموما سألته عما به، أخبرني أنه اختلف مع المدير في بعض الأمور التي تتعلق بمصلحة العمل .. وقال أيضا : إنه سيبلغ النيابة إن تمادى المدير في تلك المخالفات ..

الخميس ٢٤ فبراير ....

عندما آوينا إلى الفراش ، ظل يتقلب فيه بطريقة قلقة .. أسند رأسه على وسادة عالية .. مد يده إلى علبة سجائره .. أشعل سيجارة وراح يمتص دخانها .. كنت مستيقظة .. سألته :

– ما الذي يشغل فكرك ؟ صمت .. لم يتكلم .. شعرت أنه مجروح جرحا عميقا، نزيفه داخلي ، لا أدري مصدره .

الخميس ٢ مارس ...

أصبح يُعرض عني ، لم يعد يسمعني كلمات الحب .. أصبح يهرب إلى ابتسامة باهتة يرسمها على وجهه ويلوذ بدخان سيجارته التي احترق معها .. أعلم أنه لا يرغب في الإثقال عليّ بهمومه ، لكني مثقلة الرأس بالتفكير في المستقبل .

السبت ٤ مارس ...

عندما عاد من عمله .. أخبرني بامتعاض أنه استقال .. سألته: لماذا ؟

قال إنه لا يستطيع التنازل على قيمه وإنه لم يستطع أن يقاوم الظلم وحده !

الثلاثاء ٢٢ أبريل ...

أصبحت لا أطيق رؤية زوجي صامتا .. لا يتحرك .. لا يتمرد على وهنه الروحي .. قبل زواجي منه ، أحببت فيه حماسه .. حيويته .. عزيمته التي لا تلين .. كان يعشق الأدب وينظم الشعر وينشر على صفحات الجرائد والمجلات .. أما الآن .. فقد انقطع نشاطه .. يقرأ لنفسه .. يسجن ما يكتبه في الأدراج .. حياتنا بالإحباط ، فليتحرك لمقاومة الإحباط واليأس إنهما أصبحا سرطانا غريبا يسري

في بدنه في روحه .. كل يوم يستفحل الداء .. حاولت أن أستأصله، لكني فشلت .

الاثنين ٢١ مايو .. .

عثر زوجي على وظيفة جديدة منذ أسبوع .. وبدأت حياته الروتينية تعود سيرتها الأولى .

قال لي مساء أمس : " أشعر أني جئت في غير زمني " !!

جاء في غير زمنه .. لا يعرف لماذا يعيش؟ ولمن يعيش ؟ ضاعت الفنارات من حياته .

الأربعاء٢٤ يونيه .. .

أشعر أني أعيش مع ميت .. ميت الجسد .. ميت الروح .. لم يعد هناك حل إلا الطلاق .. إن المرغوب بالأمس غير مرغوب اليوم .. والمرفوض بالأمس مقبول اليوم .. إني أخاف الموت الروحي .

الثلاثاء ١١ أكتوبر .. .

وصلتني اليوم ورقة الطلاق .. الحياة وضعتني في موقف صعب .. ربما أكون قد أخطات الاختيار منذ البداية .. لكني أبدأ اليوم من جديد فالإنسان لا يعيش مرتين ، ولن أموت وأنا حية .. سأقاوم الخوف والذبول والإحباط .

١٩٨٨/١١/١

العزف على إيقاع الحزن

عندما صمتوا

دائما ترتعش على شفتيها عشرات الأسئلة التي لا تجد لها إجابة .. عندما خرجت من بيتها إلى عملها لاحظت وهي تسير في الحارة التي تسكن فيها .. الأطفال يلعبون بعصفور صغير ربطوا قدميه .. والنساء جالسات على المصاطب يرغين ويحكين حكايات قديمة .. والرجال على المقهى يدخنون النرجيلة ويثرثرون ، وفي المساء .. عندما عادت من عملها .. وجدت الصغار يبكون ، لأن العصفور قد مات !! والنساء صامتات والرجال صامتون !! لا تدري لماذا ؟ لكنها أحست أنهم جميعا يجمعهم جرح واحد .

الأخرس

حقد دفين في صدورهم .. تعكسه نظراتهم الكريهة .. نظرت إلى السماء .. وجدتها شاحبة .. قمت من بينهم .. ارتفعت ضحكاتهم .. صرخت فيهم .. فازدادت قهقهاتهم .. هربت منهم ..

لاحقتني طفلة صغيرة .. سألتني وأنا أتأمل وجهها البريء : لماذا لا تتكلم .. هل أنت أخرس ؟

الذكري

عندما حل المساء .. كانت تجلس في الصالة الواسعة على إحدى الأرائك .. وحولها أولادها الثلاثة يواجههم التليفزيون .. قامت من جلستها .. أغلقت التليفزيون .. شيء ما خطر بذهنها .. الخطوط تتوازى والذكرى سعادة سرابية .. قامت .. اتجهت ناحية غرفة نومها .. فتحت بابها .. فاستسلمت ذاكرتها المنقادة لدبيب مجسات غامضة .. فتحت بوابات الذاكرة .. تأملت محتويات الغرفة .. السرير .. الدولاب .. المرآة .. وثبت الرغبة داخلها .. محمومة .. متشابكة الغصون .. فأجهشت باكية .

الحلم

تقابلا للمرة الأولى .. سعدت بلقائه .. حدثته عن حياتها وأسرتها الصغيرة .. حدثته عن أبيها الذي هجر البيت منذ خمسة عشر عاما وتزوج من فتاة صغيرة كانت تعمل خادمة عندهم .. وحدثته عن أمها التي ما زالت تحلم بعودة الزوج المهاجر .. وحدثته عن زوجة أخيها التي تحلم بمجيء طفل صغير وما زالت تجوب عيادات الأطباء من أجل ذلك .. حدثته عن أشياء كثيرة .. عندما سألها عن أمانيها .. قالت :

أتمنى أن أصبح كاتبة مشهورة مثلك .

ابتسم ابتسامة باهتة .. وعندما ودعها .. سار وحده حزينا وتساءل :

– ماذا يحدث إذا لم يرجع الأب المهاجر إلى زوجته ؟

– ماذا يحدث إذا لم تنجب زوجة أخيها الطفل الذي تحلم به ؟

– ماذا يحدث لو لم تتحقق أمنيتها بأن تصبح كاتبة مشهورة ؟

حيرة

يتبخر كربي .. يفارق غرفة نومي الهم .. يتلاشى حزني في أحزان الناس ..

– ما جدوى أن تبكي وحدك .. أن تقتلك الحيرة واليأس والخوف من الأيام الآتية المخزونة في جوف الغيب المجهول ؟!

ما عدت أهاب دقات الساعة .. كان قديما يعصف بي أن تغرب شمس .. أن يتلاشى قمر !!

ما جدوى أن تمكث وحدك خلف الباب وتبكي وحدك ؟

إني أستيقظ فوق جفاف لا ينبت إلا الحيرة واليأس وأحزان الغرباء .

هل ؟

عرف قبلها عشرات النساء الحسناوات .. لكنه بعد معرفته بها ، أدرك أنها أول امرأة سكنت في نبضه . ونصبت خيامها في

فكره .. وأسلمته مفاتيح مشاعرها بصدق .. لكنه دائما يسأل نفسه : ترى هل أستطيع أن أحقق آمالها .. ونتوحد .. ننجب طفلة واسعة العينين .. ترى هل أستطيع أن أبني لها بيتا واسع الطرقات .. واسع الردهات..؟!!

حين يجيء الليل .. أشعر أنك تأتين إليَّ .. وتضمين فؤادي بين يديك .. وتريحين وجهك البدري الجذاب على دفء ذراعي .. وأسأل نفسي : "أتكون خيالات لن تتحقق يوما ؟ أخشي أن ملامح وجهي عندك تتلاشى .. شيئا فشيئا .. وأكون مجرد ذكرى" !!

انكسار

ذهبت إلى الخليفة .. ورفعت إليه مظلمتي .. ابتسم الخليفة وقال: سنرسل معك كتابا إلى عاملنا في بلدك ليدفع عنك الظلم .. وحملت الكتاب .. وهناك في بلدي فض الأمير الكتاب الذي أحمله إليه من الخليفة وقال : يا لك من ساذج تحمل اغتيالك ولا تدري ..!! وبدأ يقرأ الكتاب أمامي "من خليفة المسلمين الأمين العادل الذي لا ينام إلا في أحضان امرأة مختلفة كل ليلة .. والذي لا يتوضأ إلا بالدم .. ولا تخلو سجونه من الأبرياء الأتقياء .. إلى عاملنا في .. إذا وصلكم كتابي هذا فاعملوا على قتل حامله لتمرده على عدلنا .. وأتوا إلينا برأسه واحرقوا جسده .. والسلام" .

ويستمر العرض

كان يقف في مواجهة الجمهور على خشبة المسرح .. "تلاشى ما في نفسي من طموح ، عندما عانقت أحلامي واقعكم انتحرت ! سأنسحب وياليتني انسحبت منذ زمن طويل" .. كان هذا كل ما يقوله في دوره في المسرحية التي تعرض منذ شهور .. وما أن انتهي – في ذلك اليوم – من آخر كلمه في دوره حتى سقط على المسرح بعد أن خنقته الدموع .. صفق له الجمهور .. مرت دقيقة .. دقيقتان .. ثلاث ولم يقم من سقوطه .. ساد الصمت .. صرخ المخرج بدهشة : قم يا رجل كفى . ستفسد المسرحية !! همس المخرج أشبه بالصراخ .. اقترب أحد الممثلين بحركة غير مفتعلة . هزه . جس نبضه . وجده قد مات !! جذبوه إلى خارج المسرح . ليستمر العرض .. وفي اليوم الثاني . جاءوا بممثل جديد ليمثل نفس الدور .

لا بديل

أيقظتني زوجتي من النوم قائلة :

ماذا بك سمعتك تهذي بكلمات غير مفهومة ..

سألتها : مثل ماذا ؟

– "هل يرضى الحلو بأن يصبح مرا ؟ هل يرضى المر أن يصبح حلوا؟ هل يرضى العصفور أن يحيا بغير جناح أو منقار ؟ هل يرضى أن يصبح شيئا آخر غير العصفور ؟ "

ابتسمت .. قالت :

– لابد أن تذهب إلى الطبيب لفحصك .. ابتسمت ابتسامة عريضة .. ورحت أواصل نومي !

كل يوم

كل يوم حين أعود إلى غرفة نومي عند الفجر .. ينقر شباكي . يسمعني آخر أحزانه .. أوصد شباكي ، فيئن أنينا محزونا .. يزيد أنينه .. أدور في غرفة أحزاني .. وأفتح له شباكي .

موت شاعر

ماذا يحدث في الدنيا ، لو أني آويت إلى ركن الغرفة قبل طلوع الفجر .. وبكيت ؟ !! هل يتأخر موعد ميلاد الفجر القادم ؟ هل ينضب ماء البحر؟ هل تخبو أحلام العشاق ؟ لا شيء .. لا يعني شيئا أن يخمد في ديجور الظلمة قنديل !!

لكن .. في داخل نفسي ..

تتغير كل الأشياء .. النور سراب .. الدرب عذاب .. ويصير رمادا حلمي المسكين !!

جريمة

وجهـك .. داسـته الأقـدام الفـاجرة الوثنيـة .. حملتـه الأيـدي المجنونة .. شطرته إلى نصفين طرق مدينتنا الليلية ..!!

وجهك .. صدر قرار بالقبض عليه !!

كتـب علـى بـاب مـدينتنا "ممنـوع .. ممنـوع أن يـسكن الوجـه الجذاب .. الأبيض .. مدينتنا

وجهك .. نشر الأسرار على حبل الصحف اليومية " .

ذات صـــباح .. طالعـــت .. بـــالخط الأحمـــر .. فـــي صـــدر الصحف اليومية .. الرسمية "الوجه الجذاب .. الأبيض .. قد وجد قتيلا في ميدان التحرير والقاتل مجهول " !!

١٩٨٥/٢/٩

الفهرس

الليل والحلم	٧
قالت : أذكرني	١٥
نزيف الصمت	٢٥
في الزحام	٣٣
لأني أحبك	٣٩
ضحى	٤٣
قرار	٥٥
هل حدث هذا ؟ ربما	٥٩
إنتظار	٦٥
أشواق	٧٧
البحث عن شئ ضائع	٨١
وداعاً	٨٥
محاولة	٨٩
الحزن يرحل عند المفترق	٩٧
ما حدث في المقابر	١٠٣
احزان حارتنا القديمة	١٠٩
الرحيل عن مدن الهزائم	١١٣
العزف علي ايقاع الحزن	١١٩